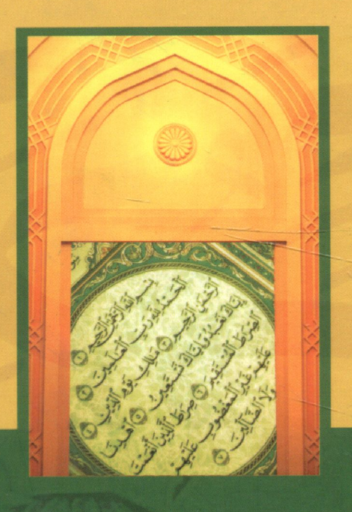
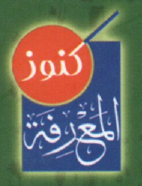
المشكل

في القرآن الكريم

من وجوه الإعجاز البياني



الأستاذ الدكتور
سعيد جاسم الزبيدي
أستاذ الدرسات اللغوية



المشكل
في القرآن الكريم
من وجوه الإعجاز البياني







دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع
عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس 4655877 6 962+ موبايل 5525494 79 962+
ص.ب. 712577 عمان 11171
E-mail: dar_konoz@yahoo.com

المشـــكـــل

في القرآن الكريم

من وجوه الإعجاز البياني

المشكل في القرآن الكريم

من وجوه الإعجاز البياني

الأستاذ الدكتور سعيد جاسم الزبيدي
أستاذ الدراسات اللغوية

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٠٠٨/١٢/٤٢٦٣)

٢٢٥,٣

الزبيدي، سعيد

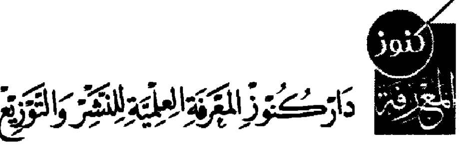
المشكل في القرآن الكريم من وجوه الإعجاز البياني/ سعيد جاسم الزبيدي._ عمان: دار كنوز المعرفة، ٢٠٠٨

(١٧٦) ص.

ر.أ: (٢٠٠٨/١٢/٤٢٦٣)

الواصفات: / إعجاز القرآن// القرآن// الإسلام/

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



الأردن - عمان - وسط البلد - مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 4655877 6 962+ - موبايل: 5525494 79 962+

E-Mail: *dar_konoz@yahoo.com* ص. ب 712577

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

جميع الحقوق الملكية والفكرية محفوظة للمؤلف، ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنفيذ الكتاب كاملا أو مجزءا أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على كمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة المؤلف خطيا

ردمك: ISBN: 978 - 9957 - 74 - 006 - 1

تنسيق وإخراج صفاء نمر البصار 00962 79 6507997 safa_nimer@hotmail.com

الإهداء

إلى بلدتي (الحاويل) التي درجتُ فيها، وتعلمتُ منها، انتماءً ووفاءً

سعيد

الفهرس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

يُعدُّ عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أول من دعا إلى التماس الاستعمال القرآني للألفاظ في الشعر، ولغات العرب، ففتح آفاقاً واسعةً للبحث في الكلمة القرآنية استعمالاً ودلالةً وجمالاً، فصاغ منهجاً متقدماً تأثّرُه المفسرون على تفاوت بينهم، فكان لنا منهم تراث عظيم به حاجة إلى نظر ناقد دقيق يلتقط منه ما ينفع هذا الجيل في عصره وتحدياته.

وانتدب ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) نفسه فألّف كتابه الشهير (تأويل مشكل القرآن) ليكشف ما يلتبس، ويردّ على الذين اتبعوا (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله. من الآية ٧/ آل عمران) فكان أن هُدِي إلى أسرارٍ خصّ الله سبحانه وتعالى العربية بها، ورسم معالم طريق إلى إدراك الإعجاز البياني، وانضمت إليه جهود قبله وبعده، وقفت على جُمَلٍ منه، وصولاً إلى سرّ إعجاز القرآن الكريم في نظمه، ومذاهبه في محاسن الكلام.

وقد شغلني بيان القرآن: باحثاً وشاعراً، فعكفتُ أقرأُ، وأستثمرُ منه ما يرتقي بالدرس اللغوي الذي أمارس، وما يغني شعرية النصّ الذي أكتب، وكان منه كتابي (سؤال في التفسير: محاولة في البحث عن منهج) توطئة لجعل (التفسير) مادةً، وموضوعاً، ومجالاً رحباً ينفتح على تراث الفصحى لصياغة (الدرس البياني) الذي نريد، والذي دعا إليه الشيخ أمين الخولي (رحمه الله) لأنه العلم الذي لا نضج، ولا احترق. ليغني به درس العربية: صوتاً، وصرفاً، ونحواً، ومعجماً، وبلاغةً، ودلالةً. ونتجاوز هذا الفصل المشوّه الذي خلّف ضعفاً، وولّد شكوى، ليصبح البيان القرآني ميداناً تطبيقياً في درس العربية، في مدارسنا، وجامعتنا، ونتحرك فيه بالمنجز التراثي الذي أبدعه الأوائل، لنعيد للعربية طلاوتها على الألسنة والأقلام !

إن في العناية بالتعبير القرآني منذ ابن عباس حتى الآن ما لفتني له وحثّني إلى الكتابة فيه، فأجتلي من أسراره ليقوم منهج، ويتسع نظر.

وتأتي محاولتي الثانية هذه في (المشكل في القرآن الكريم من وجوه الإعجاز البياني) لرصد دلالة الألفاظ التي أشكلت، وطريق الاهتداء إليها، والوقوف على العبارة القرآنية بما انتهى إليه كل من فسّرها في موضعها ـ أو مواضعها ـ من القرآن، واستوفى تتبعها، ولنستأنس بكلّ ما روي ووصل إلينا، ونقد ما وقع من وهم.

لقد قامت محاولتنا هذه على:

* مقدمة سوّغت هذه المحاولة وحددت هدفها في رفع سوية درس العربية، وإحياء منهج.

* رأي في إعجاز القرآن.

* تمهيد: مصطلحات متقاربة:

- المشكل. - المتشابه. - الغريب.

- المبهم. - المجمل.

فوجدنا أنها متداخلة، والفارق بينهما دقيق، فبسطنا القول فيها، واخترنا (المشكل) من بينها، فالغريب مشكل، والمبهم مشكل، وربما شاركهما (المتشابه) في وجه من وجوهه على الرغم من كونه مصطلحا فرض وجوده بأبعاده كلها، وقام بإزاء (المحكم).

وتناولنا صور (المشكل) في فصلين:

الفصل الأول: - في الحروف.

الفصل الثاني: - ظواهر لغوية.

وألحقنا بهما فصلا ثالثا: المشكل في النحو والقرآن الكريم

١- التنازع بين النحو والتفسير.

٢- رأي الفرّاء في (الذي).

٣- إعراب جديد للمنادى المعرف بأل.

وجاءت الخاتمة بأبرز ما وصلنا إليه في هذه المباحث.

والله الموفق للصواب

أ.د. سعيد جاسم الزبيدي

رأي في الإعجاز

رأي في إعجاز القرآن

إنّ القرآن الكريم " لا تفنى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردّ."[1] وسيظلّ الناس يبحثون عن أسراره، ودلائل إعجازه في كل عصر، وفي كلّ جيل، إنّه التحدّي الدائم لكلّ من عرف (الكلمة)، وتذوق منظومها، ومنثورها، وأدرك سحرها، فوقف حائراً، عاجزاً، متأملاً، محاولاً أن يجد تفسيراً مناسباً يركن إليه، فذهب في هذا مذاهب شتى ! على الرغم من اتفاق تام على أن هذا القرآن " كلام عرفته العرب ونطقت به... "[2]

لفت (الجاحظ ت ٢٥٥هـ) نظر أهل البيان إلى أن (النظم) الذي جاء به القرآن هو سرّ تفرده، وإعجازه، ففتح الباب واسعا لمن تأثره، أو خالفه، في بسط الكلام على صياغته، وانتظام معانيه، فطغى (الإعجاز البياني) على سواه من وجوه الإعجاز الأخرى التي أوردها القدماء والمعاصرون. [3]

ومنذ أدركتُ أنّ (التعبير القرآني) يفتح لي آفاقا واسعات في الدرس والإبداع آمنتُ بنظرية عبد القاهر الجرجاني في (دلائله) وآراء مهدي المخزومي في تحليل الجملة. والأسلوب، في (نقده وتوجيهه) [4]، فكنت أنطلقُ في رحاب القرآن أنهلُ منه ما يعينني درساً، وبحثاً، وعرضاً على طلبتي، فاتّسع النظر والاطلاع والفهم حتّى طفقتُ أبحث عن تفسير جديد لظاهرة (الإعجاز)، تستكمل ما قيل في (النظم)، فكانت لي هذه الوقفة التي أرجو أن أوفق في بيان ما يعني الإعجاز البياني عندي، وهذا لا يعني أنني أحاول تحديده [5] أو أدرك اجتلاء أسراره، قدر ما أزعم أن هذه مقاربة في نظرية (النظم).

قال عبد القاهر:

" فإذا ثبت الآن أنْ لا شك، ولا مرية في أنْ ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه، فيما بين معاني الكلم ـ ثبت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو، وأحكامه، ووجوهه، وفروقه، ولم يعلم أنها معدنه ومعانه، وموضعه ومكانه، وأنه لا مستنبط له سواها، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها ـ غارٌّ نفسه بالكاذب من الطمع، ومسلم لها إلى الخُدَع. وأنه إنْ أبى أنْ يكون فيها، كان قد أبى أن يكون القرآن معجزاً بنظمه، ولزمه أن يثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به. "[٦]

انتهى البحث إلى أنّ سرّ الإعجاز يكمن في نظمه، وحسن تأليفه، فوجدت أنّ هذا يقوم على الإسناد، فـ" الألفاظ لا تفيد حتّى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف."[٧]

ففي الجملة الفعلية " لا فاعل إلاّ الله عند أهل الحق".[٨] كقوله تعالى:

- (خلق السمواتِ والأرض... النحل / ٣)
- (خلق الإنسانَ من نطفةٍ... النحل / ٤)
- (خلق ظلالاً... النحل / ٨١)
- (خلق الليل والنهار والشمس والقمر... الأنبياء / ٣٣)
- (خلق كلّ دابة من ماء... النور / ٤٥)
- (خلق كلّ شيء... الفرقان / ٢)
- (خلق من الماء بشراً... الفرقان / ٥٤)
- (خلق لكم من أنفسكم أزواجاً... الروم / ٢١)
- (خلق الأزواج كلّها... الزخرف / ١٢)
- (خلق الزوجين الذكر والأنثى... النجم / ٤٥)

- (خلق الجان من مارج من نار... الرحمن / ١٥)

وهكـذا مـع أفعـال (المشيئة)، و (العلـم)، و (التنزيـل)، و (الإحيـاء) , و(الإماتة).

فإذا أسند الفعـل بعدئـذ إلى (الملائكـة)، و (الأنبيـاء)، و (الرسـل)، فإنمـا ليكون ذلك طريقاً إلى الإيمان به، والتسليم له، حتّى يُسندَ الفعـل إلى الإنـسان، وسائر مخلوقاته (وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله... الإنسان / ٣٠) لأنه جلّ وعلا (خلق الإنسان، علّمه البيان... الرحمن / ٣،٤). فإذا آمنَ، وسلّم، (إنّـا هـديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً... الإنسان / ٣) فعندئذ يفعل أفعاله التي يختارهـا في ضوء مقدار إيمانه إيجاباً وسلباً.

فهذا إسناد الجملة الفعلية في القرآن كلّه سواء حقيقتها أم مجازها.

أما إسناد الجملة الاسمية التي يقف في طليعتها:

- (قل هو الله أحد. الإخلاص / ١)
- (الله نور السموات والأرض... النور / ٣٥
- (اللهُ واسع عليم... البقرة / ٢٦٨)
- (والله رؤوف بالعباد... آل عمران / ٣٠)
- (والله خبير بما تعملون... آل عمران / ١٥٣)

وكثير مما أسند إليه ليدلّ على تحقق وثبوت، يكون به الإيمان وثيقاً.

فإذا تمّ ما افترضناه، وتحقق، صح المنطلق الذي بنينا عليه أن تأليف الجملة في القرآن هو سرّ التحدي، وسرّ إعجازه، وإذ لا أريد الخوض في تفاصـيل بنـاء الجملة القرآنية التي اختارت العناية الإلهية العربيـة أن تكـون البنيـة الأساسـية، لكنّ الـسياق يحـدد معالمهـا ودلالتهـا، وهـذا مـا يكـشف خـصوصية (الجملـة القرآنية)[٩]، ويربطها بأسباب النزول إلى منشئها الأول سـبحانه وتعـالى، وربّ

معترض يقول: إنْ هذا إلاّ تفسير لنظرية النظم ! فأقول: ليكن إنْ كان هذا يقود إلى إثباتها، وتوطيد معالمها ورسومها، وفي مثل هذا شرف قد لا أدركه.

فإذا تجاوزنا التركيب الإسنادي، وعطفنا إلى التركيب الإضافي وجدنا:

- (عبد الله... مريم / ١٣، الجن / ١٩)
- (عبدنا... البقرة / ٢٣، ١٧، ٤١، القمر / ٩)
- (عبده... الإسراء / ١، الكهف/ ١، مريم / ٢، الفرقان / ١، الزمر / ٣٦، النجم / ١٠، الحديد / ٩)
- (عبادِ... الزمر / ١٠، ١٧، الزخرف / ٦٨)
- (عبادي... البقرة / ١٨٦، إبراهيم / ٣١، الحجر / ٤٢، ٤٩، الإسراء / ٦٥، الكهف / ١٠، طه / ٧٧، الأنبياء / ١٠٥، المؤمنون / ١٠٩، الفرقان / ١٧، الشعراء / ٥٢، العنكبوت / ٥٦، سبأ / ١٦، الزمر / ٥٣، الدخان / ٢٣، الفجر / ٢٩)
- (عبادك... النساء / ١١٨، المائدة / ١١٨، الحجر / ٤٠، النمل / ١٩، ٨٣، الزمر / ٤٦، نوح / ٢٧)
- (عبادنا... يوسف / ٢٤، الكهف / ٦٥، مريم / ٦٣، فاطر / ٣، الصافات / ٨١، ١٧١، ٤٥، الشورى / ٥٢، التحريم / ١٠)
- (عباده... البقرة / ٩٠، الأنعام / ١٨، ٦١، ٨٨، الأعراف / ٣٢، ١٢٨، التوبة / ١٠٤، يونس / ١٠٧، إبراهيم / ١١، النحل / ٢، الإسراء / ١٧، ٣٠، ٩٦، مريم / ٦١، الفرقان / ٥٨، النحل / ١٥، ٥٩، القصص / ٨٢، العنكبوت / ٦٢، الروم / ٤٨، سبأ / ٣٩، فاطر / ٢٨، ٣١، ٤٥، الزمر / ٧، ١٦، غافر / ١٥، ٨٥، الشورى / ١٩، ٢٣، ٢٧، الزخرف / ١٥)

هذا فضلا عن إضافة: (كتب)،

و (الملائكة)،

إلى الضمير (الهاء)

و (الرسول) إلى: الضمير (ياء المتكلم)،

والضمير (نا)،

والضمير (الهاء)،

و (الرسل) إلى: الضمير (الكاف)،

و (الياء)،

و (نا)،

و (الهاء).

هذه الإضافات صياغة ربانية مرتبطة بالإيمان به وبكتبه، وملائكته، ورسله.

ولو تأملنا الثنائيات الجميلة التي تدلل على عظمة خلقه، وقدرته، وتصرفه، مثلاً:

الإيمان والكفر، التوحيد والشرك.

السماء و الأرض، الليل والنهار.

الإنس والجن، الشمس والقمر.

الدنيا والآخرة، الحياة والموت.

الجنة والنار، الثواب والعقاب.

وكثير غير هذا، من الثنائيات التي لو أردنا استقصاءها لأمكننا إعداد بحث مستقل مستفيض، والنظر في ما وراءها من دلالات، فكل لفظة هنا مُعرّفة، أو

منكّرة، لا يجد الباحث، أو القارئ أن يبدل إحداهما بـالأخرى، أو يعـدل عـن هذه إلى تلك، ذلك الضرب من محاسن الكلام.

وإذا نظرنا في الألفاظ مفردةً مفردةً، فلا يمكـن وضـع لفظـة مكـان أخـرى مهما كانت قريبةً من بديلتها في المعنى، ولا يمكن أن يخلف لفظٌ لفظـاً. فمفـردة القرآن وثنائيته وإسناده، كلّ هذا ينطلق من سبحانه تعالى، لذا تحدّى القرآن كل فصيح بليغ، وهذا هو سرّه، وإعجازه، والله الموفق للصواب.

الهوامش

١. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني / القاهرة ـ دار المدني / جدة، ط: ٣، سنة ١٩٩٢م، ص ٣٨٩.

٢. عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين، دار الفكر العربي، ط: ١، سنة ١٩٧٤ م، ص ٧٩.

٣. ينظر: نفسه من ص ١٥٢ إلى ٣٧٢، وتنظر بنت الشاطئ: الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف ـ القاهرة، ط: ٢، سنة ١٩٨٧، من ص٩٩ إلى ١٢٩.

٤. مهدي المخزومي: في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، ط: ٢، سنة ١٩٨٦.

٥. تنظر: بنت الشاطئ: الإعجاز البياني للقرآن، ص ١٤٠.

٦. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٥٢٦.

٧. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني ـ جدة، ط: ١، سنة ١٩٩١م، ص ٤.

٨. ابن مضاء القرطبي: الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة، ط: ٣، سنة ١٩٨٨م، ص ٧٨.

٩. ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، دار غريب ـ القاهرة، د. ط، سنة ٢٠٠٣م، ص ١٠ – ١١.

تمهيد



مصطلحات متقاربة

سلك القدماء: من أهل اللغة، وأصحاب المعاني، وجمهور المفسرين، طرقاً شتّى في بيان دلالة التعبير القرآني: من الحروف المقطعة، والمفردات، والتراكيب، والفواصل، وأسباب النزول، ومعرفة مكيّه، ومدنيّه، وناسخه ومنسوخه، وأصول تلاوته، وقراءاته، وغير ذلك كثير، في دائرة بحثهم للكشف عن سرّ إعجازه، وما زالوا يتدبرونه، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معاشره. [1]

لقد ظهرت في مباحثهم مصطلحات عدة، نعرض منها ما نرى أنّ له صلة بموضوعنا (المشكل في القرآن الكريم...) لنوضح علّة اختيارنا مصطلح (المشكل) من بين مصطلحات أخرى: المتشابه، والغريب، والمبهم، والمجمل، لأنها مصطلحات متقاربة، فـ "لكلّ صناعةٍ ألفاظ."[2]

ومن هذه ألفاظ سميت (الكليات) التي تعبر عن مفهوم معين، و عدّها بعضهم (مفاتيح العلوم) [3]، ونحاول هنا أن نستنطقها في مظانّها، لغةً، واصطلاحاً حتى نقيم الدليل على المصطلح الذي عقدنا بحثنا عليه في أن (المشكل) وجه من وجوه الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

المشكل

المشكل لغةً:

قال الخليل (ت ١٧٥ هـ) في كتاب العين:

"باب الكاف والشين واللام معهما: ك ش ل، ش ك ل، مستعملان: أشكل الأمر إذا اختلف، وأمر مشكل شاكل مشتبه ملتبس."[4]

وورد مثل هذا في كثير من المعجمات [5] التي تلت (كتاب العين) ولم يخرج عن هذا المعنى.

واصطلاحاً:

لعلّ أول من اتخذه مصطلحاً وعنواناً لكتابه هو ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) فقال:

"ومثل المتشابه المشكل، وسمّي مشكلاً: لأنه أشكل، أي: دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله. ثمّ يقال لما غَمُضَ ـ وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة ـ: مشكل. وقد بيّنت ما غمُض من معناه لالتباسه بغيره، واستتار المعاني المختلفة تحت لفظه."[6]

وقال الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ): في مادة شكل:

"... والإشكال في الأمر استعارة كالاشتباه من الشبه."[7]

وقال الشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ):

"المشكل من أقسام (غير واضح الدلالة) الذي لا ينال المراد منه إلا بالتأمل والطلب، أو هو اسم لكلام أو لفظ يحتمل المعاني المتعددة ويكون المراد واحداً منها، لكنه دخل في أشكاله وهي تلك المعاني المتعددة فاختفى بسبب هذا الدخول ليتميز عن أشكاله وأمثاله."[8]

وقال التهانوي (ت ١١٥٨ هـ):

"المشكل: اسم فاعل من الإشكال، وهو الداخل في أشكاله، وأمثاله، وعند الأصوليين: اسم للفظ يشتبه المراد منه بدخوله أشكاله على وجه لا يعرف المراد منه إلاّ بدليل يتميز به من بين سائر الأشكال، كذا قال شمس الأئمة. ويقرب منه ما قيل: المشكل ما لا ينال المراد منه إلاّ بالتأمل بعد الطلب لدخوله

في أشكاله، ومعنى التأمل والطلب أن ينظر أولاً في مفهوم اللفظ ثم يتأمل في استخراج المراد... فخرج الخفي، والمجمل، والمتشابه. إذ في الخفي يحصل المراد بمجرد الطلب، وفي المجمل يحصل بالطلب والتأمل والاستفسار، وفي المتشابه لا يحصل المراد أصلاً... وكثير من العلماء لا يهتدون إلى الفرق بين المشكل، والمجمل."[9]

نخرج مما تقدم بأنّ (المشكل) هو ما يلتبس ظاهر معناه لأول وهلة ولا يتضح إلاّ بالنظر والتأمل والبحث والطلب.

المتشابه

أمّا (المتشابه) فقد استقر مصطلحاً بإزاء (المحكم) انطلاقاً مما ورد في القرآن الكريم: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأُخر متشابهات. من الآية ٧ / آل عمران) وليس من وكدنا هنا أنْ نخوض في الاختلاف الذي نشأ بين العلماء من أنّ القرآن الكريم كلّه محكم، أو كلّه متشابه، ودلالتهما، والدائرة التي يتحرك كلّ منهما فيها، وعلاقتهما بالناسخ والمنسوخ، وغير ذلك من مباحث تعلقت بهما، وتفاصيل لا ضرورة لذكرها هنا، ولكن نتناول من ضروب (المتشابه) ما يلتقي مع (المشكل) في وجه، فقد ذكر العلماء للمتشابه الذي اختلف فيه "ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل للوقوف عليه كوقت الساعة، وخروج دابة الأرض."[10] وهذا ليس مرادنا، ولا يدخل في (المشكل)، "وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة، والأحكام الغَلِقَة."[11]

ومن هذا الضرب تدخل (الألفاظ الغريبة) في دائرة (المشكل) ويلتقي معه، "وضرب متردد بين الأمرين يجوز أن يختصّ بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم."[12] وهذا لا يدخل في (المشكل) إذ اختصّ بجوانب عرفها بعض الراسخين في العلم سنذكرها لاحقا في مصطلح آخر.

فما اختصّ به سبحانه وتعالى واستأثر فلا سبيل لأحد فيه، كأمر الروح، وآحاد المغيبات [١٣]، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال، وعيسى، والحروف المقطعة في أوائل السور [١٤]، وما يحمل على تأويل غير مستقيم، وغير هذا. [١٥] وما تناوله بعض الراسخين في العلم فلا يقدح بأحد عدم معرفته: مثل ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ "مكثت سنة أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم." [١٦] أو طلبت اسم الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة حتى وجدته." [١٧] وهذا لا يدخل في (المشكل) الذي نريد أنه وجه من وجوه الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

كلّ هذا يعزز سرّ اختيارنا مصطلح (المشكل) فجزء من (المتشابه) أو ضرب منه يلتقي مع المصطلح المختار، وقد وضحت دائرة (المتشابه) الذي يتحرك فيها، وبمعظمه حاجة إلى تأويل، وهذا محفوف بالمخاطر، فضلا عن الخلاف فيه، وعند بعضهم أنه أحد أقسام غير واضح الدلالة. [١٨]

الغريب

قيل فيه: لغةً واصطلاحاً:

"الغريب: الغامض من الكلام." [١٩]

"وهو يتصيد المعاني من السياق، لأن مدلولات الألفاظ خاصة." [٢٠]

وقيل: "ومعرفة هذا الفنّ للمفسر ضروري، وإلاّ فلا يحلّ له الإقدام على كتاب الله تعالى." [٢١] وقد قيل: "لم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به... وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي... ومن الغريب والمعاني." [٢٢] ولكن بعد أن بعد العهد ظهرت الحاجة إلى سؤال أهل العلم، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: "إذا سألتموني عن غريب اللغة فالتمسوه في الشعر...." [٢٣]

فالغريب هنا ما يتعلق بالمفردات، ويشكّل جزءاً من (المشكل) فالأخير أعمّ، وأشمل، وأوسع دائرة، من الغريب.

المبهم

المبهم: لغةً واصطلاحاً:

" وأبهم الأمر أي اشتبه، لا يعرف وجهه، واستبهم عليّ هذا الأمر."[٢٤]

" والمبهم عند الأصوليين هو المجمل... وعند المحدّثين هو من لم يُصرّح باسمه في المتن والإسناد... [و] مبهمات القرآن هي ما أبهم من أسماء الأشخاص، والأماكن، والأعداد الواردة في كتاب الله تعالى."[٢٥] ومن هذا ما روي عن ابن عباس مثلاً قال: طلبت اسم رجل في القرآن وهو الذي خرج مهاجراً إلى الله ورسوله وهو حمزة بن العيص... مكثت سنة..."[٢٦] وعن عكرمة: " أربع عشرة سنة."[٢٧] وللإبهام أسبابه. [٢٨]

فالمبهم مصطلح مشترك بين الأصوليين والمحدّثين والمفسّرين، ولكلٍّ معنى، قد يدخل منه في (المشكل) ولهذا وقفنا عنده، وانصرفنا عنه.

المجمل

المجمل: لغةً واصطلاحاً:

" الكلام الذي لم يبيّن تفصيله مجملٌ."[٢٩]

" وهو ما خفي المراد منه بحيث لا يدرك بنفس اللفظ إلاّ ببيان من المجمل سواءً كان ذلك لتزاحم المعاني المتساوية الأقدام كالمشترك أو لغرابة اللفظ وتوحشه من غير اشتراك فيه كالهلوع، أو لانتقاله من معناه الظاهر إلى ما هو غير معلوم فترجع إلى الاستفسار ثمّ الطلب ثمّ التأمل كالصلاة والزكاة والربا...."[٣٠]

وقيل فيه: " المجمل في مقابل المفصل."[٣١]

فالمشترك اللفظي من المجمل فهو يدخل في (المشكل) ومن هنا جاء اختيارنا (المشكل) مصطلحاً مناسباً لبيان كونه من وجوه الإعجاز.

وبعد:

فهذا عرض لمصطلحات متقاربة وضّحنا دلالتها واستعمالها والدائرة التي نتحرك فيها حتى خرجنا ب (المشكل) مصطلحاً يناسب ما ذهبنا إليه من كونه واحداً من وجوه الإعجاز البياني.

الهوامش

١. ينظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بعناية خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، سنة ١٩٩٩م، ٢ / ٤٧٠.

٢. الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ٣ / ٣٦٨.

٣. ينظر: الشاهد البوشيخي: نظرات في قضية المصطلح العلمي في التراث، ط ١، سنة ٢٠٠٦م، ص٢٢.

٤. الخليل: كتاب العين، تحقيق المخزومي والسامرائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط ١، ١٩٨٨م، باب الكاف والشين واللام معهما.

٥. وينظر مثلاً:

- أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٩، باب الشين والكاف وما يثلثهما.
- الزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل العيون، دار الكتب العلمية ــ بيروت، مادة (شكل)
- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر ـ بيروت، ط ١، د.ت، مادة (شكل).
- مجد الدين الفيروزأبادي: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١،١٩٩٥م، مادة (الشكل).

٦. تأويل مشكل القرآن، تحقيق سيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، د.ت، تاريخ المقدمة ١٩٧٣ م، ص ١٠٢. ــ ولابن تيمية (ت ٧٢٨ هــ) كتاب عنوانه (تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء... تحقيق عبد العزيز محمد خليفة، مكتبة الرشد ــ الرياض، سنة ١٤١٥ هـ.

٧. المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد خليل عيتاني، دار المعرفة ــ بيرت، ط ٣، سنة ٢٠٠١م، ص ٢٦٩.

٨. التعريفات، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار النفائس ـ بيروت، ط ١، سنة ٢٠٠٣م، ص ٣٠١.

٩. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق رفيق العجم،، وعلي دحروج، وعبد الله الخالدي، وجورج زيناتي، مكتبة لبنان ـ بيروت، ط ١، ١٩٩٦م، ٢ / ١٥٥١.

١٠. ١١. ١٢. الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٢٥٨.

١٣. ينظر ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١، سنة ٢٠٠١م، ١/ ٤٠٣.

١٤. ينظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية ـ بيروت، د.ط، سنة ١٩٩٣ م، ٢ / ٨.

- وتابعه وهبة الزحيلي في: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق ـ بيروت، ط ١، ١٩٩١م، ٣ / ١٥٠.

١٥. ينظر الشريف الجرجاني: التعريفات، ص ٢٨٠ وأضاف (آيات الصفات).

١٦. ١٧. عبد الجواد خلف عبد الجواد: الياقوت والمرجان في تفسير مبهمات القرآن، كتب خانة مظهري ـ باكستان، ط ١، سنة ١٩٨٤م، ص ١١.

١٨. ينظر التعريفات، ص ٢٨٠.

١٩. الخليل: كتاب العين، باب الغين والراء والباء معهما.

٢٠. الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر ـ بيروت، ط ١، ١٩٨٨م، ١ / ٣٦٥.

٢١. نفسه ١ / ٣٦٧.

٢٢. أبو عبيدة: مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، د.ت،١/ ٨.

٢٣. الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ١/ ٣٦٨.

ولعلّ سؤالات نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس تمثل هذا المنهج، تنظر بنت الشاطئ: الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف ـ القاهرة، ط ٢، سنة ١٩٨٤م، ص ٢٨٧ - ص ٥٩٧.

٢٤. الخليل: كتاب العين، باب الهاء والميم والباء معهما.

٢٥. ٢٦. الشريف الجرجاني: التعريفات، ص ٢٧٨، وينظر: عبد الجواد خلف عبد الجواد: الياقوت والمرجان في تفسير مبهات القرآ ن.

٢٧. الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ١ / ٢٠٢.

٢٨. ينظر نفسه للتفصيل ١ / ٢٠٢ - ٢٠٧.

٢٩. الفيروز أبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية ـ بيروت، د.ت، ٢ / ٣٩٥.

٣٠. الشريف الجرجاني: التعريفات، ص ٢٨٥.

٣١. التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ١ / ١٤٧٤.

الفصل الأول

في الحروف

- المبحث الأول : تعدية الأفعال بالحروف
- المبحث الثاني: زيادة الحروف
- المبحث الثالث: تناوب حروف الجر والتضمين

الفصل الأول: في الحروف

تتفاعل المفردات من خلال (النظم) لأداء معاني متنوعة لـ "أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة..."[1] (إلا) أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يُجعَل لها أمكنة ومنازل..."[2] ولكي نصل إلى أسرارها في التركيب لا بد لنا من رؤية في التحليل اللغوي حتى ندرك الغرض من تركيبها، والمعنى الذي تؤديه، واتساقها مع ما قبلها، وما بعدها: تصريفاً، وترتيباً، وزيادةً، وتنغيماً، وإعراباً، وربطاً بين تحول الجملة من بنيتها الأولى المحايدة إلى بنيتها العميقة بدخول عنصر من عناصر التحويل فيها. إن محاولة كهذه لا تبتعد كثيراً عما صاغه الخليل وسيبويه والفراء وعبد القاهر الجرجاني من منهج رائد في ربط المبنى بالمعنى لبيان ما أشكل فهمه، أو ما كان فيه خروج على مقتضى أصله في أي تعبير لاسيما التعبير القرآني للنظر في (إعجازه البياني) الذي هو الوجه الأكثر مساحةً في (الإعجاز القرآني).

إن بالمفردة القرآنية حاجة إلى معرفة المراد منها حتى كأن المشكل منها غير مشكل[3] لأن "المعاني إنما تبين بالألفاظ"[4]. ولأن المجال اللغوي للعربية متسع جداً، "وأن فقه العربية لغةً وبياناً هو أداة النظر في الإعجاز"[5]. فضلاً عن أن هذا كله لا يتأتى إلا لمن قوي نظره، واتسع مجاله اللغوي، وقليل ما هم.

نعالج في هذا الفصل من صور المشكل ثلاثة مباحث هي: (في الحروف).

كان النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ يبين للصحابة في عصر الوحي ما أشكل عليهم فهمه من القرآن الكريم، ثم ظهرت الحاجة بعدئذٍ إلى البحث في مفرداته وتراكيبه، فقام علم التفسير، وتعددت مناهجه، واستقلت كتب في بيان معانيه، و إعرابه، ومفرداته، ومشكله.

المبحث الأول : تعدية الأفعال بالحروف

هذا باب واسع في العربية إذ تتعدى أفعال بالواسطة فتكون لها دلالة تختلف عما إذا كانت تتعدى بهذا الحرف دون ذاك، وربما كانت لها دلالة جديدة لم يعدها العرب في الفعل الذي تعدى بحرف معين فكان للاستعمال القرآني بهذه القضية تفرد ومزية ونختار منه صورة و نوازنها بما قالته العرب لنعزز كيف ارتفع التعبير القرآني عما استعملته العرب وارتقى لتتحقق المزية، ويظهر التفرد، ويكون (الإعجاز)، ونقف على صورة من ذلك:

من قوله تعالى:

- الآية (٦) من سورة الإنسان: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا).
- الآية (٢٨) من سورة المطففين: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ).

ومرادنا من هاتين الآيتين تعبير: (يَشْرَبُ بِهَا)، ولكي يكون تحليلنا كافياً نستقري صورة الفعل (شرب): ماضياً، ومضارعا، وأمراً في القرآن الكريم ونوازنه بما استعملته العرب، وما قاله أصحاب المعاني والمفسرون والمعربون فيه لنخلص إلى رأي:

ورد في القرآن ماضياً:

ثلاث مرات في سورة البقرة:

- في الآية (٩٣): (وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ).

- ومرتين في الآية (٢٤٩): (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ).

وورد مضارعاً أربع مرات:

- مرتين في سورة (المؤمنون) الآية (٣٣): (مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ).

- وفي سورة (الواقعة) الآية (٦٨): (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ).

- وفي سورة (الإنسان) الآية (٥): (إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا).

وورد أمراً سبع مرات:

- مرتين في سورة (البقرة):

- الآية (٦٠) قال تعالى: (كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ).

- والآية (١٨٧): (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ).

- وفي سورة (الأعراف) الآية (٣١): (يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ).

- وفي سورة (مريم) الآية (٢٦): (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا).

- وفي سورة (الطور) الآية (١٩): (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ).

- وفي سورة (الحاقة) الآية (٢٤): (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ).

- وفي سورة (المرسلات) الآية (٤٣): (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ).

وتحقق في الاستعمال القرآني لهذا الفعل في صيغه الثلاث الوجوه الآتية: الأكثر فالأقل:

الاقتصار على الفعل بلا متعلق: شرب.

الفعل + من : شرب من.

الفعل + الباء : شرب بـ.

الفعل متعدياً : شرب الماء.

ولكل من هذه الوجوه دلالة: فالوجه الأول الإطلاق والإباحة، والثاني التبعيض والتحديد، والثالث الواسطة والإلصاق، والرابع التعدية والوصول.

وفي القراءة:

قرأ ابن أبي عبلة [٦] الآية (٦) من سورة الإنسان (عَيْنًا يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللَّهِ)، ولم أعثر على هذه القراءة في كتب القراءات وشواذها [٧] وإنما أشارت إليها كتب التفسير مثل: تفسير ابن عطية، وتفسير أبي حيان الأندلسي، وتفسير أبي السعود، وغيرهم، وقد اتخذ جمهرة من أصحاب المعاني والمفسرين والمعربين هذه القراءة لتعزيز ما ذهبوا إليه من وجه إسقاط (الباء) ليقرروا أن المعنى بالباء وبغيرها واحد !

وإذا استقرينا ما ورد في معجمات اللغة لمعرفة صور التعبير بالفعل (شرب) ومتصرفه وجدنا هذه الصور: "شرب الماء وغيره... وشربن بماء البحر... أوقع الباء موقع من... أو في معنى روين... وأشربَ الإبلَ... وأشرِبَ قلبَهُ محبة هذا [٨]... وهذا ما استعملته العرب". وحاول أصحاب المعاني والمفسرون والمعربون أن ينطلقوا من هذا لمقاربة التعبير القرآني الذي وردت به الآيتان موضع البحث، فلم يفلتوا من أساره، ولم يدركوا ارتقاءه وسّره في الإيحاء بدلالة جديدة لم يصلوا إليها.

لقد حقق استعمال العرب للغويين منطلقاتهم اللغوية أو قُل أخضعوه لمعيارية حصرت دلالات هذا الاستعمال فكانت لديهم:

التعدية.

تناوب الحروف.

التضمين.

الاقتصار عليه.

لننظر ماذا قال أصحاب المعاني والمفسرون والمعربون في تخريج الآيتين:

فمما قاله أصحاب المعاني:

قال الفراء (ت ٢٠٧هـ):

في الآية (٦) من سورة الإنسان: "يشربُ بها، ويشربها سواء في المعنى"[٩]. ولم يقف على الآية (٢٨) من سورة المطففين إما إنها من سقط النساخ وإما إنه اكتفى بما مرّ. ولا نتفق معه هنا على أن المعنى

واحد ؛ لأن هناك مُسلمة سارت في الدرس اللغوي أن أية زيادة في المبنى تصحبها زيادة في المعنى.

أما أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ) فلم يقف على الآيتين موضع البحث [١٠].

وانصرف الأخفش الأوسط (ت ٢١٥ هـ) إلى توجيه نصب (عَيْنًا) من غير أن يقف على (يَشْرَبُ بِهَا) [١١].

وقال ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ):

"تقول العرب شربت بماء كذا وكذا أي من ماء كذا، قال الله تعالى: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)، و (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) ويكون بمعنى: يشربها عبادُ اللهِ ويشرب منها..."[١٢].

يتجاوز ابن قتيبة في هذا النصّ توجيه الفرّاء فيضيف إلى ما ذكره قضية تناوب الحروف، وهذه قضية سنقف عليها لاحقاً.

واكتفى الزجاج (ت ٣١٠ هـ) بتوجيه نصب (عَيْنًا) في الآيتين. [١٣]

ومما قاله المفسرون:

قال الطبري (ت ٣١٠ هـ):

"ويعني بقوله: (يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) يروى بها و يُنتقع، وقيل يشرب بها ويشربها بمعنى واحد"[١٤]. وقال: "أما المقربون فيشربونها صرفاً... يشربها المقربون صرفاً... يشرب بها المقربون صرفاً... يشرب منها المقربون صرفاً"[١٥].

هنا يضيف الطبري إلى ما ورد سابقاً قضية لغوية أخرى هي (التضمين) وهذه قضية أخرى سنقف عليها لاحقاً.

وقال الطوسي (ت ٤٦٠ هـ):

"قال الفراء: شربها، وشرب منها سواء في المعنى، كما يقولون: تكلمت بكلام حسن، وكلاماً حسناً"[١٦]. وقال: يسقون عيناً، والباء زائدة، يقال: شربت عيناً وشربت بالعين وقد فسرناه في (هَلْ أَتَى)"[١٧].

يبدو في نص الطوسي وهم أو عدم دقة فالفراء على ما مرّ قال: يشرب بها ويشربها سواء في المعنى، والطوسي يذكر أمرين: زيادة الباء، وتناوب الحروف، وهذه قضية ثالثة سنقف عليها لاحقاً.

وقال البغوي (ت ٥١٦ هـ):

"(يَشْرَبُ بِهَا) وقيل: يشربها، والباء صلة، وقيل بها أي منها"[١٨] وقال:"(يَشْرَبُ بِهَا) أي منها، وقيل: يشرب بها المقربون صرفاً"[١٩].

ذكر البغوي باختصار ما قيل قبله !

وقال الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ):

"فإن قلتَ: لِمَ وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولاً، وبحرف الإلصاق آخراً ؟ قلتُ: لأن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته، وأما العين فبها يمزجون شرابهم، فكان (كذا صوابه فكأنّ) المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر، كما تقول: شربت الماء بالعسل"[٢٠].

ووجه الزمخشري في الآية الثانية نصب (عَيْنًا) [٢١]، ولم يعرض لـ (يَشْرَبُ بِهَا).

حاول الزمخشري في وقفته الأولى أن يربط دلالياً بين (يشربون من كأس) و(يشرب بها)، ولا أظنّه موفقاً، فإذا اتجه له المعنى في سورة الإنسان فلا يكون كذلك في سورة المطففين !

وقال ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ):

"وقوله (يَشْرَبُ بِهَا) بمنزلة يشربها. فـ (الباء) زائدة، وقال الهذلي: شربن بماء البحر أي شربن ماء البحر، وقرأ ابن أبي عبلة: (يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللَّهِ)"[٢٢].

وقال: "وقوله تعالى (يشرب بها) معناه: يشربها، كقول الشاعر أبي ذؤيب الهذلي:

شربن بماء البحر ثم تصعدت ... متى لجج خضرٍ لهنّ نئيجُ

يكرر ابن عطية ما قاله الذين سبقوه !

وقال الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ):

"الباء مزيدة أي يشربها والمعنى يُشرب ماؤها لأن العين لا تشرب وإنما يشرب ماؤها... قال الفرّاء

شربها وشرب بها سواء في المعنى كما يقولون: تكلمت بكلام حسن، وكلاماً حسناً"[٢٤]. وقال:"(عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) أي هي خالصة يشربونها صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة"[٢٥].

ولم يكن في نص الطبرسي جديد !

وقال ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ):

" (يَشْرَبُ بِهَا) فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: يشرب منها.

والثاني: يشرب بها، والباء صلة.

والثالث: يشرب بها عباد الله الخمر يمزجونها بها. [٢٦]

وقال: " وقد بينا معنى (يَشْرَبُ بِهَا) في (هَلْ أتى). [٢٧]

رتب ابن الجوزي ما قيل سابقاً ولم يزد شيئاً !

وقال الرازي (ت ٦٠٤ هـ):

" قال في الآية الأولى: (يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ) وقال ههنا: (يَشْرَبُ بِهَا) فذكر هناك (من) وههنا (الباء)، والفرق أن الكأس مبدأ شرابهم وأول غايته أما العين فبها يمزجون شرابهم فكأن المعنى يشرب عباد الله بها الخمر كما تقول شربت الماء بالعسل[٢٨].

وهذا تكرار توجيه الزمخشري السابق.

وقال:"(عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) كقوله: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) وقد مر"[٢٩].

ونقول: إذا كان الربط بين قوله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا) وقوله تعالى: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) مقبولاً في مناسبة (يَشْرَبُونَ مِن) والكأس، (يَشْرَبُ بِـ) والعين والمزج، فكيف يكون في الآية الثانية (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) ومناسبتها غير تلك وعلاقتها بالآية التي تسبقها لا تتطابق مثلها ؟ ! وهذا يقرر أن التوجيه غير موفق، لا عند الرازي ولا عند غيره ممن نقل عنه.

وقال القرطبي (ت ٦٧١ هـ):

"(يَشْرَبُ بِهَا) قال الفراء: يشرب بها، ويشربها سواء في المعنى، وكأن يشرب بها يروى بها وينقع وأنشد: شربن بماء البحر... قال: ومثله فلان يتكلم بكلام حسن، ويتكلم كلاماً حسناً، وقيل: المعنى يشربها، والباء زائدة. وقيل الباء بدل (من) تقديره يشرب منها، قاله القتبي"[٣٠]. وقال:"(عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) أي يشرب منها أهل جنة عدن..." [٣١].

والتكرار واضح في قول القرطبي !

وقال النسفي (ت ٧١٠ هـ):

"(عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) أي منها، أو الباء زائدة، أو هو محمول على المعنى يلتذ بها أو يروى بها"[٣٢]. وقال:"(يَشْرَبُ بِهَا) أي منها."[٣٣]

تكرار ما قيل !

وقال الخازن (ت ٧٢٥ هـ):

"(يَشْرَبُ بِهَا) أي يشرب منها"[٣٤]. وقال:"(عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا) أي منها، وقيل يشربها"[٣٥].

تكرار ما قيل !

وقال أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ):

"أتى بالباء الدالة على الإلصاق... أو ضُمّنَ يشرب معنى يروى، فعدّى بالباء، وقيل الباء زائدة والمعنى يشربها... وقرأ ابن أبي عبلة (عَيْنًا يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللَّهِ). [٣٦] وقال: "وقال الأخفش (يَشْرَبُ بِهَا) أي يشرب بها أي يشربها أو منها أو ضُمن معنى يروى بها"[٣٧].

لقد عدل أبو حيان من تلميح أصحاب المعاني بزيادة الباء إلى التصريح، مما فوّت على الاستعمال ملحظاً دلالياً جميلاً سنذكره بعدئذٍ.

وقال البيضاوي (ت ٧٩١ هـ):

"قيل الباء مزيدة أو بمعنى (من) لأن الشرب مبتدأ منها "[٣٨]. وقال: "والكلام في الباء كما في (يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ)"[٣٩].

والكلام هنا مكرر لم يخرج عما قيل !

وقال الفيروز أبادي (ت ٨١٧ هـ):

"باء التبعيض (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) أي منها."[٤٠]

يقرّ الفيروز أبادي بتناوب الحروف !

وقال البقاعي (ت ٨٨٥ هـ):

"(عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا) أي بمزاجها، كما تقول شربت الماء بالعسل. "[٤١] وقال:"(عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا) أي بسببها على طريقة المزج منها. "[٤٢]

اختار البقاعي وجهاً واحداً مما قيل !

وقال أبو السعود (ت ٩٥١ هـ):

"وقوله تعالى: (يَشْرَبُ بهَا عِبَادُ اللَّهِ)... قيل ضُمن (يَشْرَبُ) معنى يلتذّ، وقيل الباء بمعنى من، وقيل زائدة ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: يشربها"[٤٣] وقال: "فالباء مزيدة أو بمعنى من. "[٤٤]

والتكرار واضح وليس به حاجة إلى بيان !

وقال الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ):

"قيل إن الباء في (يَشْرَبُ بِهَا) زائدة. وقيل بمعنى من قاله الزجاج، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة (عَيْنًا يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللَّهِ)، وقيل: إن (يَشْرَبُ) مضمن معنى: هي متعلقة بـ (يَشْرَبُ). "قيل إن الباء في (يَشْرَبُ بِهَا) زائدة. وقيل بمعنى من قاله الزجاج، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة (عَيْنًا يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللَّهِ)، وقيل: إن (يَشْرَبُ) مضمن معنى يلتذ، وقيل: هي متعلقة بـ (يَشْرَبُ)

والضمير يعود إلى الكأس. وقال الفراء: يشربها ويشرب بها سواء في المعنى، وكأن يشرب بها يروى وينتفع (وصوابها ينتقع) بها وأنشد يقول الهذلي: شربن بماء البحر ثم ترفعت[45] قال: ومثله تكلم بكلام حسن، وتكلم كلاماً حسناً. وقال: "قيل: والباء في بها زائدة أي: يشربها، أو بمعنى من أي: يشرب منها"[46].

جمع الشوكاني كل ما قيل في هاتين الآيتين فذكره مكرراً !

وقال الآلوسي (ت ١٢٧٣ هـ):

"الباء للإلصاق وليست للتعدية وهي متعلقة معنى محذوف... وهو كما تقول شربت الماء بالعسل... وأما على القولين الآخرين فقيل وجه الباء أن يجعل من باب: يجرح في عراقيبها نصلي لإفادة المبالغة، وقيل الباء للتعدية وضُمن (يَشْرَبُ) معنى يروى فعدّي بها وقيل هي بمعنى (من)، وقيل هي زائدة والمعنى يشربها كما في قول الهذلي: شربن بماء البحر، ويعضد هذا قراءة ابن أبي عبلة (يَشْرَبُهَا)"[47]. وقال: "والباء إما زائدة أي يشربها أو بمعنى من أي يشرب منها، أو على تضمين يشرب معنى يروى"[48].

عرض الآلوسي أقوال من سبقوه !

وقال ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ):

"وعدّي فعل (يَشْرَبُ) بـ(الباء) وهي باء الإلصاق... وذهب الأصمعي إلى أن (الباء) في قوله تعالى: (يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) بمعنى (من) التبعيضية ووافقه الفارسي وابن قتيبة وابن مالك وعدّ في كتبه ذلك من معاني الباء ونسب إلى الكوفيين"[49]. وقال: "وباء (يَشْرَبُ بِهَا) إما سببية وعدي فعل (يَشْرَبُ) إلى ضمير العين بتضمين (يَشْرَبُ) معنى يمزج... وإما باء الملابسة وفعل (يَشْرَبُ) معدّى إلى مفعول محذوف وهو الرحيق... أو الباء بمعنى (من) التبعيضية، وقد عدّه الأصمعي والفارسي وابن قتيبة وابن مالك في معاني الباء وينسب إلى الكوفيين... وليس ذلك ببيّن فإن الاستعمال العربي يكثر فيه تعدية فعل

الشرب بالباء دون (من)، ولعلهم أرادوا به معنى الملابسة، أو كانت الباء زائدة كقول أبي ذؤيب: شربن بماء البحر[٥٠].

لقد توقف ابن عاشور بعد أن عرض ما قيل وأدرك منه "ليس ذلك بيّن..." فكان المعنى منه على ضربة معول ليستخرجه فالاستعمال العربي الكثير (يَشْرَبُ بِـ) وأن الباء مقصودة هنا ولكن لم يتقدم خطوة ليصل إلى المراد!

وقال وهبة الزحيلي (معاصر):

"و (يَشْرَبُ بِهَا) الباء إما بمعنى من أي يشرب منها، أو زائدة أي يشرب ماءها، لأن العين لا تُشرب وإنما يشرب ماؤها[٥١]. وقال: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) أي يشرب منها أهل جنة عدن وهم أفاضل أهل الجنة صرفاً وهي لغيرهم مزج". [٥٢]

لا جديد عند الزحيلي مما تقدمه !

ومما قاله المعربون:

قال النحاس (ت ٣٣٨ هـ):

"وفي (يَشْرَبُ بِهَا) وجهان، قال الفرّاء يشرب بها ويشربها واحد، قال أبو جعفر: وأحسنُ من هذا أن يكون المعنى يروى بها[٥٣].

هنا يرجح أبو جعفر النحاس (التضمين) !

وقال مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ):

"قوله تعالي: (يَشْرَبُ بِهَا) نعت للعين، وبها بمعنى (منها)". [٥٤]

ويختار مكي (تناوب حروف الجر) !

وقال العكبري (ت ٦١٦ هـ) في كتابيه: التبيان في إعراب القرآن:

"و (يَشْرَبُ بِهَا) قيل الباء زائدة، وقيل هي بمعنى من[٥٥]. وقال: "و (يَشْرَبُ بِهَا) قد ذكر في الإنسان[٥٦].

وإملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن:
وقال: " قوله تعالى: (يَشْرَبُ بِهَا) قيل الباء زائدة، وقيل هي بمعنى من، وقيل هو حال أي يشرب ممزوجاً بها، والأولى أن يكون محمولاً على المعنى يلتذ بها "(٥٧).
وقال: " و (يَشْرَبُ بِهَا) قد ذكر في الإنسان."(٥٨)

ويرجح أبو البقاء العكبري بعد أن نقل ما قيل (التضمين) !

وقال محيي الدين درويش (معاصر):

" و (بِهَا) جار ومجرور متعلقان بـ (يَشْرَبُ)، والضمير يعود على الكأس أي يشربون العين بتلك الكأس، والباء للالتصاق... وقيل الباء زائدة أي يشربها ويدل له قراءة يشربها... وأنها بمعنى (من)... للتبعيض، أثبته الأصمعي وابن مالك والفارسي والقتبي وجعلوا منه هذه الآية... ويجوز أن يتضمن يشربون معنى يلتذون... أو يتضمن معنى يرتوي..."(٥٩). وقال: " و(بِهَا) متعلقان بـ (يَشْرَبُ) أي منها، على أن التضمين في الحرف أو يكون التضمين بالفعل..."(٦٠).

بقي محيي الدين درويش أسير مقولات سابقة فجاء إعرابه على وفق ما سبق، ولا جديد !

وأخيراً نختم بما قال عبد الكريم الخطيب (معاصر) لأنه قارب الدلالة وإن تعثر في ثنايا عرضه فقال:

" في تعديه الفعل (يَشْرَبُ) بحرف الجر (الباء) مع أنه يتعدى بنفسه أو بحرف الجر (من)، فيقال: شربت اللبن، أو شربت من اللبن... إشارة إلى أن العين التي يشرب منها عباد الله هي خمرٌ وكأسٌ معاً... وبهذا أحل النظم القرآني مادة الشراب (العين) محل الكأس على حين أقام الكأس مقام العين... ومقتضى النظم كذلك (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) !... تمثلت لك العين كأساً يشرب بها... فما زاد النظم القرآني عن أن أقام حرف (الباء) مكان الحرف (من)"(٦١).

وقال: " وفي تعدية الفعل (يَشْرَبُ) بـ (الباء) بدلاً من حرف الجر (من) كما يقضي بذلك وضع اللغة في هذا إشارة إلى أن هذه العين هي شراب وأداة للشراب أيضاً فهم يشربون بهذه العين من العين.

ونقول أخيراً:

على الرغم من ملاحظتنا على ما عرضه عبد الكريم الخطيب في قصره تعدية الفعل بنفسه، أو بحرف الجر (من)، واعتراضه على تعدّيه بـ (الباء)، وعدم انطلاقه من التعبير القرآني (شرب + الماء) وعدّه صورة جديدة من صور التعبير لهذا الفعل، وما يترتب عليها من معنى، وكذلك اعتراضنا على عبارته " فما زاد النظم القرآني عن أن أقام حرف الباء مكان الحرف من"[٦٢] فكأنه هدم ما قارب من دلالة إذا لم أجد أحداً اقترب مما ولدته هذه الصورة التي لم يألفها الاستعمال السائد للفعل(شَرِبَ)، إذ أن المألوف أن الباء تفيد الإلصاق أو الواسطة والاستعانة وتقترن بالآلة [٦٣] غير أن التعبير القرآني جرى على غير ما عهد العرب من تعدية الفعل بنفسه أو بمن و دلالته.

وقد وفق عبد الكريم الخطيب أيما توفيق في عبارته التي تحسم هذا التعدد الذي عرضناه من آراء أصحاب المعاني والمفسرين والمعربين فقال: تمثلت لك العين كأساً... فهم يشربون بهذه العين من العين، وهذا ما نراه ونقرره في هاتين الآيتين موضوع البحث وبذلك ينفتح الاستعمال في الحروف أصالةً، وتزداد صور التعبير وهذا فضل القرآن الكريم على العربية ومن أسرار إعجازه.

وخلاصة ما نذهب إليه الدعوة إلى إعادة النظر في موضوع تعدية الأفعال بالحروف لتتسع الدلالة على وفق ما ورد من الاستعمال القرآني الذي يدفعنا دوماً إلى تجديد النظر للوصول إلى أسرار بيانه وجمال تعبيره ودقّة دلالته، وعدّ صور التعبير القرآني التي تخرج عما رسمه أهل اللغة صوراً أصيلة جديدة ومحاولة استكناه معاني أخرى، ورفدها العربية لتتسع دائرة التعبير.

الهوامش

١- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني / القاهرة، طـ٣ سنة ١٩٩٢م، صـ٤٦.

٢- نفسه صـ٥٦.

٣- ينظر نفسه صـ ٣٢.

٤- نفسه صـ٦٤.

٥- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): القرآن والتفسير العصري، سلسلة (اقرأ) دار المعارف / مصر، طـ٢ ١٩٩٩م، صـ٣٤، ٣٥.

٦- ترجمته: هو إبراهيم بن أبي عبلة، واسمه: شمر بن يقظان بن المرتحل، ويكنى بأبي إسماعيل، وأبي إسحق، وأبي سعيد الشامي الدمشقي ويقال له الرملي والمقدسي توفي سنة ١٥١هـ، ثقة تابعي، له اختيار في القراءات خالف فيه. ينظر ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ــ القاهرة، سنة ١٩٣٢م، ١/ ١٩.

٧- ينظر أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم: معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء، عالم الكتب ــ القاهرة، طـ٣، سنة ١٩٩٧م، ٥/ ٢٦١.

٨- ابن منظور: لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت، طـ١، د.ت، مادة (شرب).

٩- معاني القرآن، تحقيق عبد الفتاح اسماعيل شلبي، وعلي النجدي ناصف، دار السرور، د.ت، ٣/ ٢١٥.

١٠- ينظر مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.طـ، سنة ١٩٨٨م، ٢/ ٢٧٩، ٢٩٠.

١١- ينظر معاني القرآن، تحقيق فائز فارس، دار البشير / دار الأمل، عمّان، طـ٢، سنة ١٩٨١م، ٢/ ٥١٩، ٥٣٢.

١٢- تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت، صـ٥٧٥.

١٣- ينظر معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث ـــ القاهرة، طـ١، سنة ١٩٩٤م، ٥/٢٥٨، ٣٠١.

١٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق / بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م، المجلد ١٤/ ٢٢٤.

١٥- نفسه، المجلد ١٥/ ١١٩.

١٦- التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب العاملي، دار إحياء التراث العربي ـــ بيروت، د.ت، المجلد ١٠/ ٢٠٨.

١٧- نفسه المجلد ١٠/ ٣٠٤.

١٨- معالم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥م منشور مع تفسير (الخازن)، ٦/ ٣٣٦.

١٩- نفسه ٦/ ٣٨٨.

٢٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، سنة ٩٩٨م، ٦/ ٢٧٦، ٢٧٧.

٢١- نفسه ٦/ ٣٣٨.

٢٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد،دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م، المجلد ٥/ ٤٠٩، ٤١٠.

٢٣- نفسه المجلد ٥/ ٤٥٤.

٢٤- مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، وفضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٦م، ١٠/ ٦١١.

٢٥- نفسه، المجلد ١٠/ ٦٩٣.

٢٦- زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، سنة ١٩٨٧م، ٨/ ٤٣٠، ٤٣١.

٢٧- نفسه، ٩/ ٦٠.

٢٨- التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٧م، المجلد ١٠/ ٧٤٤.

٢٩- نفسه، المجلد ١١/ ٩٣.

٣٠- الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، سنة ١٩٩٣م، المجلد ١٠/ج١٩/ ٨٢.

٣١- نفسه، المجلد ١٠/ ج٢٠/ ٨٢.
٣٢- تفسير النسفي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، د.ط، د.ت، ٤/ ٣١٧.
٣٣- نفسه، ٤/ ٣٤١.
٣٤- لباب التأويل في معاني التنزيل، ضبطه عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥م، ٦/ ٣٣٦.
٣٥- نفسه، ٦/ ٣٨٨.
٣٦- البحر المحيط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١ ن سنة ١٩٨٣م، المجلد ٨/ ٣٩٥.
٣٧- نفسه، ٨/ ٤٤٢.
٣٨- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٩م، ٢/ ٥٥٢.
٣٩- نفسه، ٢/ ٥٧٩.
٤٠- بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط د.ت، ٢/ ١٩٢.
٤١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥م، ٨/ ٢٦٦.
٤٢- نفسه، ٨/ ٣٦٤.
٤٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، سنة ١٩٩٤م، ٩/ ٧١.
٤٤-نفسه، ٩/ ١٢٩.
٤٥-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، اعتنى به يوسف الغوش، دار المعرفة،بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥م،٥/ ٤٢٦.
٤٦- نفسه، ٥/ ٤٩٦.
٤٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٤م، المجلد ١٥/ ١٧٠.
٤٨- نفسه، ١٥/ ٢٨٣.

٤٩- التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ط، سنة ١٩٩٧م المجلد ١٤/ ٣٨١.

٥٠- نفسه، ١٥/ ٢٠٨.

٥١- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، ط٢، سنة ١٩٩٨م، ٢٩/ ٢٨٦.

٥٢- نفسه، ٣٠/ ١٣٠.

٥٣- إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، مطبعة العاني،بغداد، د.ت، ٣/ ٥٧٤.

٥٤- مشكل إعراب القرآن، تحقيق ياسين محمد السواس، اليمامة،دمشق / بيروت، ط٣، سنة ٢٠٠٢م، ص٧٦٠.

٥٥- التبيان في إعراب القرآن، دار الفكر،بيروت، ط١، سنة ١٩٩٧م، ٢/ ٤٨١.

٥٦- نفسه، ٢/ ٤٩٥.

٥٧- إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٧٩م، ٢/ ٢٧٦.

٥٨- نفسه، ٢/ ٢٨٣.

٥٩- إعراب القرآن الكريم وبيانه، اليمامة، بيروت، ط٧، سنة ١٩٩٩م،٨/ ١٦٤،١٦٣.

٦٠- نفسه، ٨/ ٢٥٥، ٢٥٦.

٦١- التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، مصر، د.ط، سنة ١٩٧٠م، المجلد ٨/ ١٣٥٨، ١٣٦٠.

٦٢- نفسه، ٨/ ١٤٩٦.

٦٣- ينظر ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك, ومحمد علي حمد الله، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، د.ت ١/ ١٤٢.

- وينظر شرح ابن عقيل لألفية بن مالك وعليه أضواء على الشرح، لعاصم بهجت البيطار وعبد الفتاح الغندور وحسن عبده الريس، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،د.ت، ٢/ ٢٤٦. وينظر فيها أيضاً الهامش (٦) من الصفحة نفسها.

المبحث الثاني: زيادة الحروف

أثار مصطلح (الزيادة) [1] إشكالا مستديما بين اللغويين والمفسرين، من حيث تطلبه الصنعة اللغوية في مكونات الجملة، والحرج الذي يسببه هذا المصطلح في التعبير القرآني، فاختلفوا فيه، وترجحوا بين من قال بزيادة بعض الحروف: (الباء، والكاف، والواو، وإنْ، وأو، وما، ولا) وإنّ ذكرها وحذفها سواء في المعنى. ومنهم من قال بأصالتها، و إنّ ذكرها صورة أخرى من صور التعبير في الجملة العربية، وبدونها يختَلُّ نظم الكلام، ويفسد تأليف العبارة. وقد حفلت كتب أصحاب المعاني، واللغة، والتفسير، قديما وحديثا، بمباحث قيّمة عرضت هذا الاختلاف في (الزيادة) مصطلحا، وتحليلا انطلقت من نصوص قرآنية، وما قالته العرب: شعرا ونثرا، لتعزيز ما ذهبوا إليه من توجيه. ولعل الإشارة إلى هذه المباحث مما يطول بيانه، وقد يصعب استقصاؤها. ولأننا نبحث في المفردة القرآنية ـ ولا سيما الحروف منها ـ لا بدَّ لنا من أن نتبنى الرأي الذي يقول: " غير جائز أنْ يكون في كتاب الله حرف لا معنى له"[2]. و " إنَّ الحروف لا يليق بها الزيادة كما لا يليق بها الحذف"[3]. و " أنّه ليس في القرآن حرف زائد على أصل التركيب"[4]. و " ينبغي أنْ يتجنب المعرب أن يقول في حرف من كتاب الله تعالى إنه زائد، لأنه يسبق إلى الأذهان أن الزائد هو الذي لا معنى له، وكلام الله سبحانه منزه عن ذلك"[5]. و " ما من حرفٍ في القرآن الكريم تأوّلوه، أو قرّروه محذوفا، أو فسّروه بحرفٍ آخر، لا يتحدى بسرّهِ البياني كلَّ محاولةٍ

لتأويله على غير الوجه الذي جاء به في البيان المعجز[٦]. و "ليس فيه حرفٌ إلا جاء لمعنى[٧].

ومن هذا المنطلق الذي استقر لدى الباحثين في أسرار التعبير القرآني قديما وحديثا نؤكد ما استقرّ عندهم، ونتناول هنا الحرف (ما) في أربع آيات قيل بزيادتها فيها، ثمَّ نرجح الرأي الذي نراه صوابا.

الآيات هي:

قال سبحانه وتعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)، (آل عمران / ١٥٩). وقال سبحانه وتعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ)، (النساء / ١٥٥، و المائدة / ١٣). وقال سبحانه وتعالى: (عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)، (المؤمنون / ٤٠). وقال سبحانه وتعالى: (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا)، (نوح / ٢٥).

ونعرض ما قاله أهل اللغة وأصحاب المعاني والمفسرون في هذه الآيات الأربع التي وقعت فيها (ما) بعد حروفِ الجر (الباء، وعن، ومن) وبقيت هذه جارةً، و (ما) فيها أهي زائدة كافة أم زائدة غير كافة أم ماذا ؟ لأن البنية الخارجية للتعبير ليس كلَّ شيء في تحديد المعنى، بل يتحدد معناه على مستوى أعمق من ذلك في بنيته الداخلية.

فمما قاله أهل اللغة وأصحاب المعاني:

قال سيبويه (ت نحو ١٨٠ هـ):

"وأما قوله عزَّ وجلَّ: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) فإنما جاء لأنه ليس لـ (ما) معنى سوى ما كان قبل أن تجيء إلا التوكيد[٨]. وقال: "إنها لغو بمنزلة (ما) في قوله عزَّ وجلَّ: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)[٩]. وقال: "قال عزّ وجلّ: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) وهي لغو في أنها لم تحدث إذ جاءت شيئا لم يكن قبل أن تجيء من العمل وهي توكيد للكلام[١٠].

يعدّ سيبويه (ما) لغوا ـ أي: حرفاً زائداً ـ للتوكيد !

وقال الفراء (ت ٢٠٧ هـ):

" وقوله: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ) العرب تجعل (ما) صلة في المعرفة والنكرة واحدا. قال الله: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) والمعنى فبنقضهم. و (عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) والمعنى عن قليل... وربما جعلوه اسما، وهي في مذهب الصلة فيجوز فيما بعدها الرفع على أنه صلة والخفض على اتباع الصلة كما قبلها"[11]. وقال: " وقوله: (مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) العرب تجعل (ما) صلة فيما ينوى به مذهب الجزاء، كأنك قلت من خطيئاتهم ما أغرقوا، وكذلك رأيتها في مصحف عبد الله"[12].

يقدِّم الفراء هنا مصطلحا جديدا هو (الصلة) يتناسب وجلالة التعبير القرآني على الرغم من أنه يرى (ما) زائدة !

وقال أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ):

" (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ) أعملت الباء فيها فجررتها بها"[13]. وقال:"(فَبِمَا نَقْضِهِم): فبنقضهم"[14]. وقال:"(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) فبنقضهم، والعرب تستعمل (ما) في كلامها توكيدا، وإن كان الذي قبلها يجر جررت الاسم الذي بعدها، وإن كان مرفوعا رفعت الاسم، وإن كان منصوبا نصبت الاسم"[15]. وقال:"(عَمَّا قَلِيلٍ) مجازه عن قليل، و (ما) من حروف الزوائد، فلذلك جرّوه، والعرب قد تفعل ذلك"[16]. وقال: (مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) من خطيئاتهم"[17].

انتقل أبو عبيدة في مقولاته الخمس من التلميح إلى التصريح بالزيادة وحاول أن يعلل ذلك بما تفعله العرب في كلامها، أي: يقيس القرآن على كلام العرب !

وقال الأخفش الأوسط (ت ٢١٥ هـ):

"وقال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ) يقول فبرحمته، و (ما) زائدة"[18].
وقال:"(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) فـ (ما) زائدة، كأنه قال: فبنقضهم"[19].

ذهب الأخفش الأوسط إلى زيادة (ما) في الآيتين،ولم يقف على الآيات الأخرى.

وقال ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ):

" و (ما) تزاد كقوله: (عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)"[20].

وقال المبرد (ت ٢٨٥ هـ):

" و (ما) تزاد على ضربين: فأحدهما أن يكون دخولها في الكلام كإلغائها نحو: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)، أي: فبرحمته، وكذلك: (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا)"[21].

يلغي المبرد أي معنى لـ (ما) !

وقال الزجاج (ت ٣١٠ هـ):

" وقوله (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) (ما) لغو في اللفظ، المعنى: فبنقضهم... (ما) دخلت للتوكيد"[22]. وقال: " وقوله عز وجل: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) (ما) لغو، المعنى فبنقضهم ميثاقهم، ومعنى (ما) الملغاة في العمل توكيد القصة"[23].

يعيد الزجاج مصطلح سيبويه (اللغو) ويقول بالزيادة كسابقيه.

وقال النحاس (ت ٣٣٨ هـ) في كتابيه: إعراب القرآن، ومعاني القرآن الكريم:

" (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ) (ما) زائدة وخفضت رحمة بالباء، ويجوز أن تكون (ما) اسما نكرة خفضا بالباء، ورحمة نعتا لما، ويجوز (فَبِمَا رَحْمَةٍ)، أي: فبالذي هو رحمة"[24]. وقال:"(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) خفض بالباء، و (ما) زائدة"[25].
وقال: (فَبِمَا نَقْضِهِم) (ما) زائدة للتوكيد، ونقضهم مخفوض بالباء، ويجوز رفعه

في غير القرآن، أي: فبالذي هو نقضهم"[٢٦]. وقال:"(عَمَّا قَلِيلٍ) (ما) زائدة مؤكدة عند البصريين"[٢٧]. وقال:"(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ)... (ما) زائدة للتوكيد، ولا يجوز عند البصريين غير ذلك، والكوفيون يقولون: صلة... وهذا منها زعم الفراء أن (ما) ههنا تفيد... ومذهبه في هذا حسن"[٢٨]. وقال: "وقوله جلّ وعزّ: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) (ما) زائدة (كذا) للتوكيد"[٢٩]. وقال: "وقوله عز وجل: (عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) والمعنى عن قليل و (ما) زائدة للتوكيد"[٣٠].

يعرض النحاس ما سبقه إليه غيره ويكرر القول بزيادة (ما).

وقال مكي القيسي (ت ٤٣٧ هـ):

"قوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ) رحمة مخفوضة بالباء، و (ما) زائدة للتوكيد، وقال ابن كيسان (ما) نكرة في موضع خفض بالباء، ورحمة بدل من (ما)، أو نعت لها، ويجوز رفع (رحمة) على أن تجعل (ما) بمعنى الذي"[٣١]. وقال: "قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) (ما) زائدة للتوكيد، ونقضهم خفض بالباء، وقيل (ما) نكرة في موضع خفض، ونقصهم بدل من (ما)"[٣٢]. وقال: "قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) كالذي في (النساء)"[٣٣]. وقال: "قوله تعالى: (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) (ما) زائدة للتوكيد، وخطيئاتهم خفض بمن"[٣٤].

ذكر مكي الوجوه التي تناولها من سبقه في هذه الآيات ولم يخرج عن دائرة (الزيادة).

وقال عمر بن إبراهيم الكوفي (ت ٥٣٩ هـ):

"وتجيء (ما) على عشرة أوجه هي:... وصلة... فأما التي للصلة نحو قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) و (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)"[٣٥].

وقال أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧ هـ):

"قوله تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ) (ما) زائدة مؤكدة والتقدير فبرحمة من الله. وقول من قال: إن (ما) ليست زائدة وإنما هي نكرة في موضع

جر، ورحمة بدل من (ما) وتقديره فبشيء رحمة فليس بشيء وهو خلاف قول الأكثرين، لأن زيادة (ما) كثير في كلامهم والقرآن نزل بلغتهم"[٣٦]. وقال: "قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) (ما) زائدة للتوكيد، وزعم بعضهم أنها اسم نكرة، ونقضهم بدل منه، وليس بشيء، لأن إدخال (ما) وإخراجها واحد، ولو كانت اسما لوجب أن يزيد في الكلام معنى لم يكن فيه قبل دخولها، وإذا كان دخولها كخروجها فالأولى أن تكون حرفا زائدا على ما ذهب إليه الأكثرون"[٣٧]. وقال: "قوله تعالى: (عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) أي: عن قليلٍ، و (ما) زائدة"[٣٨].

بكلام الأنباري حاجة إلى تذييل فنقول: التزم الأنباري بزيادة (ما) على رأي من سبقه وهم كثر، وهذا ما سنناقشه لاحقا، لكنه لم يكتفِ بذلك بل حاول أن يسوّغ ما التزم به بحجتين واهيتين:

الأولى: أنه يقيس التعبير القرآني على كلام العرب، وهذا مردود أصلا فإعجاز القرآن تحدى العرب بنظمه ودلالته وفرق بين أن نحتج له بكلام العرب أو أن نقيسه عليه !

الثانية: قوله (لو كانت (أي: ما) اسما لوجب أن يزيد في الكلام معنى لم يكن فيه قبل دخولها) وهل أحد يختلف في أن أية زيادة في المبنى تصحبها زيادة في المعنى ؟ ! وكيف يستوي خروجها ودخولها في المعنى؟ ! هذا فضلا عن ردوده على الفراء والأخفش فيما ذهبا إليه لتعصبه !

وقال أبو البقاء العكبري (ت ٦١٦ هـ) في كتابيه: إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب

والقراءات:

"قوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ) (ما) زائدة، وقال الأخفش وغيره: يجوز أن تكون نكرة بمعنى شيء"[٣٩]. وقال: "قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم) (ما) زائدة،

وقيل نكرة تامة[٤٠]. وقال: "قوله تعالى: (عَمَّا قَلِيلٍ) (ما) زائدة، وقيل هي بمعنى شيء أو زمن[٤١]. وقال: "قوله تعالى: (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) (ما) زائدة[٤٢].

وقال في التبيان في إعراب القرآن: "قوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ) (ما) زائدة، وقال الأخفش وغيره: يجوز أن تكون نكرة بمعنى شيء، و رحمة بدل منه[٤٣]. وقال: "قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم) (ما) زائدة، وقيل نكرة تامة، ونقضهم بدل منها[٤٤]. وقال: في (المائدة) "قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم) الباء تتعلق بـ (لعنّاهم)... و (ما) زائدة، أو بمعنى شيء وقد ذكر في النساء[٤٥]. وقال: "قوله تعالى: (عَمَّا قَلِيلٍ) (ما) زائدة، وقيل هي بمعنى شيء أو زمن، وقيل قليل بدل منها[٤٦]. وقال: "قوله تعالى: (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا) (ما) زائدة[٤٧].

جمع العكبري الرأيين اللذين سبقا عند غيره في (ما).

وقال ابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ):

"في باب الزيادة التي تفيد اللفظ فصاحة وحسنا والمعنى توكيدا أو تمييزا لمدلوله عن (كذا) غيره: مثال (ما) أفادت زيادته اللفظ فصاحة والمعنى توكيدا قوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ) فإن كل ذي ذوقٍ سليمٍ وذهنٍ مستقيم ونظرٍ صحيح يفرق ما بين هذا اللفظ بهذه الزيادة وبينه عرِّيا منها فإنه لو قيل: (فَبِرَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ) لم تجد لها من الوقع في النفس ما لقوله: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ) ويشهد الطبع الجيد المعتدل بأنها بالزيادة أفصح وأن الزيادة أفادتها هذه الجزالة والطلاوة مع كونها جاءت مؤكدة للمعنى[٤٨].

ولنا على قول ابن أبي الأصبع ملاحظ فنقول:

لا يختلف اثنان في أن صفة (الفصاحة) تطلق على المفردات والآية هنا تركيب ! وبقي هذا الرجل أسير القول بالزيادة فحاول أن يجد له مخرجا فلم يستطع !

وقال الرضي الاستراباذي (ت ٦٨٦ هـ):

"وقد تزاد (أي ما) بعد حروف الجر نحو: (فَبِمَا رَحْمَةٍ)، و (عَمَّا قَلِيلٍ)، و (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ)"[٤٩].

كرر الرضي مقولة (الزيادة) !

وقال محمد بن أبي الفتح البعلي (ت ٧٠٩ هـ):

"ولها (أي ما) إذا كانت حرفا ثلاثة أقسام... الثاني أن تكون زائدة كقوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)، أي برحمةٍ، وقوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ)، و (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا)، أي بخطيئاتهم"[٥٠].

جرّد البعلي (ما) هنا من أية مزية حين عدَّها زائدة !

وقال المرادي (ت ٧٤٩ هـ): في (ما)

"أن تكون زائدة لمجرد التوكيد، وهي التي دخولها في الكلام كخروجها نحو: (فَبِمَا رَحْمَةٍ)، و (عَمَّا قَلِيلٍ)، و (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ)"[٥١].

ولا أدري كيف يتعامل النحاة في مسألة دخول الحرف وخروجه بمعنى واحد ؟ !

وقال ابن هشام (ت ٧٦١ هـ):

"(ما)... والوجه الثالث أن تكون زائدة... بعد الخافض حرفا كان نحو: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)، و (عَمَّا قَلِيلٍ)، و (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ)"[٥٢].

ولا يختلف ابن هشام عمن سبقه !

وقال ابن عقيل (ت ٧٦٩ هـ):

تعليقا على قول ابن مالك: "وبعدَ (مِن) و (عن) و (باءٍ) زيد ما
فلم يعق عن عمل قد عُلِما

تزاد (ما) بعد (من وعن والباء) فلا تكفها عن العمل كقوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)[٥٣]

كان همُّ ابن مالك وابن عقيل هو العمل النحوي دون المعنى، وقالا بزيادتها !

وقال محيي الدين درويش (معاصر):

" (فَبِمَا رَحْمَةٍ) جار ومجرور متعلقان بـ (لنت)، و (ما) زائدة للتوكيد"[٥٤].
وقال: " (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ)... الباء حرف جر، و (ما) زائدة للتوكيد"[٥٥].
وقال: (عَمَّا قَلِيلٍ) عن حرف جر، و (ما) زائدة، وقليل مجرورة بعن"[٥٦].

لا يخرج هنا محيي الدين عما ساقه النحاة قبله، ولا عجب ! ولكن العجب كله أنه نقل مناقشة جرت بين الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) وضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) وهذا أمر مستبعد تماما، وإنما يحسن به أن يقول: إن ضياء الدين ابن الأثير ردَّ على الغزالي في أحد كتبه، وذكر ذلك عقيب إعرابه (ما) في الآية ١٥٩ من (آل عمران) ولم يفد من رد ابن الأثير فقال: " قال الغزالي في حديثه عن أقسام المجاز: القسم الثاني عشر الزيادة في الكلام لغير فائدة كقوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ) فـ (ما) هنا زائدة لا معنى لها...، وردَّ عليه ابن الأثير فقال: هذا رأي لا أراه صوابا، وفيه نظر من وجهين: أحدهما أن هذا القسم ليس من المجاز...، والوجه الآخر:... لو عري الكلام منها لم تكن له تلك الفخامة"[٥٧].

وقال تمّام حسّان (باحث معاصر):

" ولا يعني القول بالزيادة أن في القرآن حشوا (معاذ الله) وإنما يعني أن النحاة حددوا لكل جملة أركانها ومكملاتها القياسية... ولكن المعنى المطلوب بالجملة ليس وظيفيا فقط وإنما يتخطى مجرد الوظائف... فيسلك مسالك

أسلوبية أخرى لا يحققها إلا العناصر الزائدة على مجرد النمط التركيبي... (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ) أي فبرحمته"[٥٨].

كنّا ننتظر من العلامة تمام حسان أن يجعل من العناصر التي تحقق المعنى وتسلك مسالك أسلوبية أخرى أن تكون تلك العناصر صورة تعبير مضافة إلى النمط التركيبي السائد وبذلك يكون قد وصل إلى الهدف وتجاوز القول بالزيادة التي وقع فيها في آخر النص !

وقالت هدى محمد متولي إبراهيم السداوي (باحثة معاصرة):

" الصحيح أنها ليست بزائدة وإنما هي نكرة تامة مبهمة وما بعدها تفسير وبيان لها في نحو قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) وقوله عزَّ وجلَّ: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ)"[٥٩]. وقالت: " فدعوى الزيادة باطلة"[٦٠].

لقد انتصرت هدى للرأي الذي يدفع الزيادة عن الكلام في أي نص ولا سيما التعبير القرآني، ولكنها وقعت في وهم: فـ (ما) حين تكون نكرة تامة لا تكون مبهمة !

وأخيرا نقول:

لم يستطع أهل اللغة أن يفلتوا من نمطية الجملة العربية التي ألفوها سائرة في كلام العرب شعره ونثره، وما حققوه في استكناه صورها، ولأنهم انطلقوا من أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب فطفقوا يعرضونه على سننها في قوانين التأليف والنظم، ولم يدر بخلدهم أن يجعلوا من التعبير القرآني رافدا آخر لمنطلقاتهم النظرية في صياغة تتجاوز ما وصلوا إليه ليشكل إعجاز القرآن متسعا من الوظائف الأخرى للعناصر اللغوية التي تحقق المعنى المطلوب فانحصرت نظراتهم في الآيات الأربع موضع البحث في الآتي:

١- ما دخل في أركان الجملة ومكملاتها القياسية عدّوه زائدا وتسبب مصطلح (الزيـادة) في حـرج عنـد بعـضهم فخـرج بـه إلى (الـصلة) و (الحـشو) و (الإقحام) أو أنَّ دخوله كخروجه !

٢- لا يحقق هـذا العنـصر أي معنـى إلا التوكيـد، ولـو احتكمنـا إلى أسـاليب اللغويين في التوكيد التي تفرقت في أبواب شتى في الموضـوعات النحويـة لم نجد صورة تنطبق وهـذه الـصورة الـتي ظنـوا أنهـا تخـرج بهـم مـن مقولـة (الزيادة) التي حاول بعضهم أن يتداركها بمفهوم (التوكيد)، فماذا يؤكد هذا العنصر الداخل ؟ أيؤكد لفظا أم يؤكد مضمونا أم لأن كل زيـادة في المبنـى تحقق هذه الصورة ؟ !

٣- حار أهل اللغة في منح (ما) هذه مصطلحا أو معنى أو تفـسيرا فـذهبوا إلى أنها:

- نكرة.

أو – نكرة تامة بمعنى شيء.

أو – نكرة مبهمة !

أو – اسم موصول بمعنى (الذي).

أو – كافة أو غير كافة !

وهكـذا نـرى هـذا التخلـيط وعـدم الاتفـاق عنـدهم لأنهـم لم يـدركوا خصوصية التعبير القرآني وتفوقه البياني، والإعجاز البيـاني أحـد أبـرز وجـوه الإعجاز لديهم باتفاق !

وسنقرر لاحقا رأينا في ذلك بعد عرض ما ذكره المفسرون في هذه الآيـات الأربع موضع البحث.

ونعرض مما قاله المفسرون في الآيات الأربع موضع البحث لنقف على ما رأوه في بيان المراد منها ومن ذلك:

قال الطبري (ت ٣١٠ هـ):

" يعني جلّ ثناؤه فبنقض هؤلاء"[٦١]. وقال: " ويعني بقوله جلّ ثناؤه (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) فبنقضهم ميثاقهم كما قال قتادة"[٦٢]. وقال: " عن قليل"[٦٣]. وقال: " يعني تعالى ذكره بقوله: (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) من خطيئاتهم (أغرقوا) والعرب تجعل (ما) صلة فيما نوي به مذهب الجزاء كما يقال: أينما تكن أكن"[٦٤].

لم يصرح الطبري بزيادة (ما) ولكنه فسّر الآيات وكأن (ما) غير موجودة، ولكنه في الأخير نقل رأي الفراء من غير أن يذكره ـ وهذه عادة الطبري في عامة كتبه، ربما أشار إليه في مواضع بقوله: قال بعض نحوي أهل الكوفة ـ لأنه وجد فيه مخرجا من القول بالزيادة فحمل (ما) على الجزاء ولكنّ تقديره لا يتسق وتأليف الآية إلا بإعادة صياغتها وهذا لا يجوز !

وقال البغوي (ت ٥١٦ هـ):

" قوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ) أي فبرحمةٍ من الله، و (ما) صلة كقوله: (فَبِمَا نَقْضِهِم) "[٦٥]. وقال: " قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) أي فبنقضهم، و (ما) صلة كقوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ) ونحوها"[٦٦]. وقال: (فَبِمَا نَقْضِهِم) أي بنقضهم و (ما) صلة"[٦٧]. وقال:"(عَمَّا قَلِيلٍ) أي عن قليل و (ما) صلة"[٦٧]. وقال: " (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) أي من خطيئاتهم و (ما) صلة"[٦٨].

استعمل البغوي مصطلح (الصلة لما) فرارا من القول بزيادتها لكنه فسّر الآيات الأربع كأن (ما) غير موجودة شأنه شأن الطبري !

وقال الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ):

"ما مزيدة للتوكيد... ونحوه: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ)"[٧٠]. وقال:"(فَبِمَا نَقْضِهِم) فبنقضهم، و (ما) مزيدة للتوكيد"[٧١]. وقال: "... و (ما) توكيد قلة المدة وقصرها"[٧٢]. وقال: "أكد هذا المعنى بزيادة (ما)، وفي قراءة ابن مسعود: (مِن خَطِيئَاتِهِمْ ما أُغْرِقُوا) بتأخير الصلة"[٧٣].

جعل الزمخشري (ما) زائدة، وفائدتها التوكيد في الآيات الأربع ! وهذا رأي ليس بجديد.

وقال ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ):

"وقوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ) معناه فبرحمة من الله وما قد جُرِّد عنها معنى النفي ودخلت للتأكيد وليست بزائدة على الإطلاق لا معنى لها، و أطلق عليها سيبويه الزيادة من حيث زال عملها وهذه بمنزلة: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ)"[٧٤]. وقال: "وقوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم) (ما) زائدة مؤكدة التقدير فبنقضهم"[٧٥]. وقال: "يحتمل أن تكون (ما) زائدة والتقدير فبنقضهم، ويحتمل أن تكون اسما نكرة أبدل منه النقض على بدل المعرفة من النكرة"[٧٦]. وقال: "(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ)... و (ما) الظاهرة في قوله (مِمَّا) زائدة فكأنه قال من خطيئاتهم أغرقوا"[٧٧].

والعجب من موقف ابن عطية في أمور:

١- نفي الزيادة إطلاقا في النص الأول ثم قال بها في النص الثاني والثالث !

٢- كيف يتجرد النفي عن (ما) إذا كانت نافية ؟ ! والآية ليست في موضع (نفي) بل تأكيد كما يزعم !

٣ – كيف تبدل المعرفة من النكرة ؟ !

وقال الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ):

"(ما) في قوله: (فَبِمَا نَقْضِهِم) لغو أي فبنقضهم ومعناه التوكيد"[78].
وقال:"(ما) في قوله: (فَبِمَا نَقْضِهِم) زائدة مؤكدة أي فبنقضهم"[79]. وقال: (عَمَّا قَلِيلٍ) أي عن قليل من الزمان... و (ما) ههنا مزيدة"[80]. وقال:"(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) أي من خطيئاتهم و (ما) مزيدة"[81].

يكرر الطبرسي مصطلح سيبويه (اللغو) ويقول بزيادة (ما) وغرضها التوكيد !

وقال ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ):

"قوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ) قال الفراء وابن قتيبة والزجاج (ما) ههنا صلة، ومثله (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) قال ابن الأنباري دخول (ما) ههنا يحدث توكيدا"[82]. وقال: قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) (ما) صلة مؤكدة قال الزجاج والمعنى: فبنقضهم ميثاقهم"[83]. وقال:"(فَبِمَا نَقْضِهِم) في الكلام محذوف تقديره فنقضوا، فبنقضهم لعناهم"[84] وقال:"(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ) قال الزجاج معناه عن قليل و (ما) زائدة بمعنى التوكيد"[85].

والنقل واضح عند ابن الجوزي، وهو يؤيد أن تكون (ما) زائدة.

وقال الفخر الرازي (ت ٦٠٤ هـ):

"ذهب الأكثرون إلى أن (ما) في قوله: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ) صلة زائدة ومثله في القرآن كثير كقوله: (عَمَّا قَلِيلٍ)... (فَبِمَا نَقْضِهِم)، (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) قالوا والعرب قد تزيد في الكلام للتأكيد على ما يستغنى عنه، وقال المحققون دخول اللفظ المهمل الضائع في كلام أحكم الحاكمين غير جائز، وههنا يجوز أن تكون (ما) استفهاما للتعجب"[86].

ويعرض الرازي رأيين متناقضين من غير أن يرجح أحدهما !

وقال القرطبي (ت ٦٧١ هـ):

" قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ)... (ما) زائدة مؤكدة كقوله: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ) وقد تقدم... التقدير فبنقضهم... عن قتادة وغيره"[87].
وقال:"(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ) أي عن قليل، و (ما) زائدة مؤكدة"[88]. وقال: " قوله تعالى: (مِمَّا خَطَايَاهم أُغْرِقُوا) (ما) صلة مؤكدة والمعنى من خطاياهم وقال الفراء... (ما) تدل على المجازاة"[89].

لم يخرج القرطبي عن دائرة ما قيل ولم يحسم هذا التعدد في الآراء.

وقال النسفي (ت ٧١٠ هـ):

" (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ) (ما) مزيدة للتوكيد"[90]. وقال:"(فَبِمَا نَقْضِهِم) أي فبنقضهم، و (ما) مزيدة للتوكيد"[91]. وقال:"(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ) قليل صفة للزمان... و (ما) زائدة أو بمعنى شيء أو زمن وقليل بدل منها"[92].
وقال:"(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ)... و أكد هذا المعنى بزيادة (ما)"[93].

ردد النسفي أقوال من سبقه !

وقال الخازن (ت ٧٢٥ هـ):

" قوله عز وجل (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ) أي فبرحمةٍ من الله، و (ما) صلة"[94]. وقال:"(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) يعني فبنقضهم، و (ما) مزيدة للتوكيد"[95].

نقل الخازن ما قاله السابقون!

وقال أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ):

" (فَبِمَا رَحْمَةٍ)... (ما) هنا زائدة للتوكيد وزيادتها بين الباء وعن ومن والكاف وبين (كذا) مجروراتها شيء معروف في اللسان، مقرر في علم العربية، وذهب بعض الناس إلى أنها نكرة تامة، ورحمة بدل منها "[96].

ثم يخلص أبو حيان بعد أن نقل قول (الرازي) الذي اعتمد على ما قاله (المحققون) و (الزجاج) فقال: " وهذا الرجل لحظ المعنى، ولم يلتفت إلى ما تقرر في علم النحو من أحكام الألفاظ"[97]. ثم قال: " (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ) أي عن زمن قليل و (ما) توكيد للقلة"[98]."(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ)... (ما) زائدة للتوكيد"[99].

يجزم أبو حيان أن ما قرره علم النحو المنتزع مما استعملته العرب جعله يحكم التعبير القرآني فأخضعه إليه بعقلية معيارية لا تقيم للمعنى وزنا.

وقال البيضاوي (ت ٧٩١ هـ):

" (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ) أي فبرحمة، و (ما) مزيدة للتأكيد والتنبيه"[100]. وقال:"(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ)... فبنقضهم، و (ما) مزيدة للتأكيد"[101]. وقال:"(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ) عن زمان قليل و (ما) صلة لتوكيد معنى القلة، أو نكرة موصوفة"[102]. وقال:"(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ)... و (ما) مزيدة للتأكيد والتفخيم"[103].

على الرغم من قول البيضاوي بزيادة (ما) جريا على ما قيل إلا أنه استعمل لفظتين جديرتين بالاهتمام توليان (ما) معنى لطيفا دقيقا وهما: (التنبيه) و (التفخيم) خروجا على مألوف ما ساد عن (ما) من معاني !

وقال البقاعي (ت ٨٨٥ هـ):

" قول تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ) الذي اقتضى هذا الحصر هو ما لأنها نافية في سياق الإثبات... ودلت زيادتها على أن تنوي رحمة للتعظيم أي فبالرحمة "[104]. وقال:"(فَبِمَا) مؤكدا بإدخال (ما)"[105]. وقال:"(عَمَّا قَلِيلٍ) أي من الزمن و أكد قلّته بزيادة (ما)"[106]. وقال: " وأكد بما النافية في الصورة لضد مضمون الكلام"[107].

وهنا مسألتان يثيرهما البقاعي نود أن نقول فيهما:

١- كيف تكون (ما) نافية في سياق الإثبات ؟ ! !

٢- و أين الحصر المزعوم في الآية ؟ !

وقال أبو السعود (ت ٩٥١ هـ):

"(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)... (ما) مزيدة للتوكيد أو نكرة ورحمة بدل منها مبين لإبهامها... أي فبرحمة"[١٠٨]. وقال: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) (ما) مزيدة للتأكيد أو نكرة تامة، ونقضهم بدل منها"[١٠٩]. وقال:"(عَمَّا قَلِيلٍ) عن زمان قليل، و (ما) مزيدة بين الجار والمجرور لتأكيد معنى القلة... أو نكرة موصوفة أي عن شيء قليل"[١١٠]. وقال:"(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ)... و (ما) مزيدة بين الجار والمجرور للتوكيد والتفخيم ومن لم ير زيادتها جعلها نكرة وجعل خطيئاتهم بدلا منها"[١١١].

واضح أن أبا السعود يرى زيادة (ما)، وكرر لفظة (التفخيم) التي سبقت ولم يستثمرها !

وقال الشوكاني (ت ٩٥١ هـ):

"(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ) مزيدة للتأكيد قال سيبويه وغيره، وقال ابن كيسان: إنه نكرة في موضع جر بالباء، ورحمة بدل منها، والأول أولى بقواعد العربية"[١١٢]. وقال: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ) (ما) مزيدة للتأكيد أو نكرة ونقضهم بدل منها... والتقدير فبنقضهم"[١١٣]. وقال:"(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ)... (ما) في (عَمَّا قَلِيلٍ) مزيدة بين الجار والمجرور للتوكيد لقلة الزمان"[١١٤]. وقال:"(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا) (ما) مزيدة للتأكيد والمعنى من خطيئاتهم"[١١٥].

يلتزم الشوكاني بما تقرر في قواعد العربية المنتزعة من كلام العرب ثمّ يناقضه بأن (ما) نكرة، وهذا يعني أنها غير زائدة.

وقال الآلوسي (ت ١٢٧٣ هـ):

"(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)... (ما) مزيدة للتأكيد وعليه جلّة المفسرين وهو المأثور عن قتادة، وحكى الزجاج الإجماع عليه وفيه نظر، فقد قال الأخفش وغيره يجوز أن تكون نكرة بمعنى شيء ورحمة بدل منها وجوّز أن تكون صفة لها، وقيل استفهامية للتعجب"[116]. وقال: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ)... (ما) مزيدة لتوكيدها... وجوز أن تكون (ما) نكرة تامة، ويكون (نَقْضِهِم) بدلا منها"[117]. وقال:"(عَمَّا قَلِيلٍ) أي عن زمان قليل، فـ (ما) صلة بين الجار والمجرور جيء بها لتأكيد معنى القلة و قليل صفة لزمان"[118]. وقال:"(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ)... (ما) زائدة بين الجار والمجرور لتعظيم الخطايا... ومن لم ير زيادتها جعلها نكرة وجعل (خطيئاتهم) بدلا منها"[119].

لم يدع الآلوسي رأيا سبقه إلا عرضه، غير أني لا أرى أن (ما) جيء بها لتأكيد معنى القلة، كيف ؟ وكان الأولى أن يستثمر إبهام (ما) فيوضحه لفظ (قليل) ويحدده وهنا تتجلى قيمة (ما) وأنها ليست زائدة !!

وقال الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ):

"(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ)... (ما) مزيدة بعد (الباء) لتوكيد السبب وحرف (ما) المزيد بعد (الباء) لا يكفّ (الباء) عن عمل الجر، وكذلك إذا زيد (ما) بعد (من) و بعد (عن)"[120]. وقال:"(عَمَّا قَلِيلٍ)... (ما) زائدة للتوكيد وقليل صفة لموصوف محذوف دلّ عليه السياق"[121]. وقال:"(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) من تعليلية و (ما) مؤكدة لمعنى التعليل"[122].

يرى ابن عاشور زيادة (ما) !

وقال وهبة الزحيلي (معاصر):

"(فَبِمَا رَحْمَةٍ) (ما) زائدة للتوكيد وهو رأي الأكثرين"[124]. وليس للزحيلي رأي !

وأقول:

بعد هذا العرض الطويل لما قاله أهل اللغة وأصحاب المعـاني والمفـسرون في الآيات الأربع موضع البحث ظهر لنا ما يأتي:

أولا: جعل الجميع التعبير القرآني تابعا لما صاغه أهـل اللغـة مـن قواعـد وأحكام للكلام العربي من خلال عناصره التي جعلها المؤسسة لأشكال التعبير.

ثانيا: اتفق أهل اللغة على عناصر رئيسة [١٢٦] في تركيـب الكـلام العربـي وعدوا أي خروج عليها زائدا على أصل التركيب فمنهم من منحه على الزيادة دلالة انطلاقا من مبدأ (أية زيادة في المبنى تصحبها زيادة في المعنى)، ومنهم مـن يعدّ دخول أي عنصر جديد كخروجه ولا معنى !.

ثالثا: ثبت لنـا من خلال النصوص المعروضة النقل الآلي للآراء وحشدها من غير نظر ولا مناقشة في الأغلب مما أدى إلى تكريس الظاهرة.

رابعا: انقسمت الآراء علـى: مـن يقـول بالزيـادة وهـم الأكثـرون، ومـن يرفض الزيادة في التعبير القرآني ولكنه لم ينطلـق منـه ليؤسـس لنـا أيـن تكمـن بلاغة التعبير؟ وما منطلقها ؟ وماذا أضاف للعربية من صور جديدة عمـا ألفـه أهل اللغة من عناصر التركيب ومكوناته ؟

خامسا: إنَّ (ما) في الآيات الأربع نكرة مبهمة جـيء بهـا في الآيـة الأولى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ) لبيان اتساع رحمة الله مع نبيه التي لا حدود لها فخرجت عن كونها عاملا بشريا لتتناسب ومهمة النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وفي الآية الثانيـة: (فَبِمَـا نَقْـضِهِم مِّيثَـاقَهُمْ) لبيـان سـبب مـا موضـحا بـ (نقضهم).

وفي الآية الثالثة: (عَمَّا قَلِيلٍ) السياق كله يوحي بزمن.

وفي الآية الرابعة: (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) ينظر ما ذهبنا إليه في الآية الأولى.

وبهذا نكون خرجنا:

١- من دائرة ضيقة محصورة في عناصر الكلام العربي وما جر من مصطلح (الزيادة) !

٢- أضاف القرآن الكريم صورة جديدة تؤكد إعجازه وارتقاءه على الكلام العربي وإن نزل به.

٣- أن نجعل القرآن الكريم حجة على العربية، وقد دعا إلى هذا باحثون ودارسون قديما وحديثا ولكننا لم نشهد في ميدان التطبيق إلا جهودا انصبت على (نحو القرآن) تناولت موضوعات لم تقدم منهجا متكاملا يأخذ طريقه إلى تفسير بياني جديد يتناول القرآن الكريم كلّه لا سورا معدودات.

والحمد لله أولا وأخيرا

الهوامش

١- عبّر عنه سيبويه بـ (اللغو) ينظر: الكتاب- تحقيق عبد السلام هارون - ٣ / ٧٦، ٤/ ٢٢١. و عبّر عنه الفراء بـ (الصلة) ينظر معاني القرآن، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي و علي النجدي ناصف، دار السرور، د. ت، ١ / ٢٤٤ - ٢٤٥، ٣ / ١٨٩.

٢- الطبري (ت ٣١٠ هـ): جامع البيان في تأويل القرآن - تحقيق أحمد محمد شاكر. ٢/ ٣٤٢.

٣- ابن جني (ت ٣٩٢ هـ): الخصائص - تحقيق محمد على النجار - ٢/ ٢٧٣، وما بعدها، وينظر المحتسب - تحقيق علي النجدي ناصف وعبد الحليم النجار و عبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة سنة ١٩٩٩، ٢ / ٨٩، ٢/ ٩٢ - ٩٣.

وينظر عبد القادر حسين: أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب / القاهرة، د. ت، سنة ١٩٩٨ م، ص ٣١٣.

٤- ابن القيم (ت ٧٥١ هـ): بدائع الفوائد ٢ / ١٥١ - ١٥٢.

٥- ابن هشام (ت ٧٦١ هـ): الإعراب عن قواعد الإعراب - تحقيق علي فودة نيل، الرياض، سنة ١٩٨١، ص ١٠٨.

٦- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف / القاهرة، ط٢، سنة ١٩٨٤، ص ١٣٩.

٧- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم / الكويت، ط ٨، سنة ١٩٩٦ م، ص ١٣٠ - ١٣١.

٨- الكتاب- تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط٢، ١٩٨٢، ١/ ١٨٠- ١٨١.

٩- نفسه ٣ / ٧٦.

١٠- نفسه ٤ / ٢٢١.

١١- معاني القرآن - تحقيق تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي وعلي النجدي ناصف، دار السرور، د. ت، ١ / ٢٤٤ - ٢٤٥.

١٢- نفسه ٣/ ١٨٩.

١٣- مجاز القرآن- تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط٢،سنة ١٩٨٨م،١/ ١٠٧.

١٤- نفسه ١/ ١٤٢.

١٥- نفسه ١٥٧.

١٦- نفسه ٢/ ٥٨.

١٧- نفسه ٢/ ٢٧١.

١٨ معاني القرآن - تحقيق فائز فارس، دار البشير- دار الأمل/ عمّان، ط ٣، سنة ١٩٨١،١/ ٢٢٠.

١٩- نفسه ١/ ٢٤٨.

٢٠- تأويل مشكل القرآن- تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية / د. ت، تاريخ المقدمة سنة ١٩٧٣م، ص ٢٥٢.

٢١- الكامل في اللغة والأدب- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية / بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٧، ١/ ٢٥٥.

٢٢- معاني القرآن وإعرابه - تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث / القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٤، ٢ / ١٢٧.

٢٣- نفسه ٢ / ١٥٩.

٢٤- إعراب القرآن - تحقيق زهير غازي زاهد، مطبعة العاني/ بغداد، ط١،سنة ١٩٧٩م، ١/ ٣٧٤.

٢٥- نفسه ١/ ٤٦٧ - ٤٦٨.

٢٦- نفسه ١/ ٤٨٧.

٢٧- نفسه ٢/ ٤١٩.

٢٨- نفسه ٣/ ٥١٧ - ٥١٨.

٢٩- معاني القرآن الكريم - تحقيق محمد على الصابوني، مطبوعات مركز إحياء التراث الإسلامي / مكة المكرمة، ط١، سنة ١٩٨٨، ٢ / ٢٣٠ - ٢٣١.

٣٠- نفسه ٤/ ٤٥٨.

٣١- مشكل إعراب القرآن - تحقيق ياسين محمد السواس، اليمامة / دمشق - بيروت، ط ٣، سنة ٢٠٠٢م، ص ١٥٨.

٣٢- نفسه ص ١٩٢.

٣٣- نفسه ص ٢٠١.

٣٤- نفسه ص ٧١٢.

٣٥- البيان في شرح اللمع- تحقيق علاء الدين حموية، دار عمار / عمّان، ط١، سنة ٢٠٠٢م، ص ٦٧٠ - ٦٧١.

٣٦- البيان في غريب إعراب القرآن - تحقيق طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة، د. ت سنة ١٩٨٠، ١/ ٢٢٩.

٣٧- نفسه ١/ ٢٧٣.

٣٨- نفسه ٢/ ١٨٥.

٣٩-إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، دار الكتب العلمية / بيروت، ط١، سنة ١٩٧٩، ١/ ١٥٥.

٤٠- نفسه ١/ ٢٠٠.

٤١- نفسه ٢/ ١٤٩.

٤٢- نفسه ٢/ ٢٧٠.

٤٣- التبيان في إعراب القرآن، دار الفكر / بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٧، ١/ ٢٤١.

٤٤- نفسه ١/ ٣٠٦.

٤٥- نفسه ١/ ٣٢١.

٤٦- نفسه ٢/ ٢٣٦.

٤٧- نفسه ٢/ ٤٦٩.

٤٨- بديع القرآن - تحقيق حفني محمد شرف- نهضة مصر/ القاهرة، د.ت، ص ٣٠٥.

٤٩- شرح الرضي على الكافية - تحقيق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس/ بنغازي، ط٢، سنة ١٩٩٦، ٤/ ٤٣٦.

٥٠- الفاخر في شرح جمل عبد القاهر - تحقيق ممدوح محمد خسارة، سلسلة التراث العربي / الكويت، ط١، سنة ٢٠٠٢ م، ٢/ ٤٥٢.

٥١- الجنى الداني في حروف المعاني- تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية / بيروت، ط١، سنة ١٩٩٢م، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

٥٢- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب- تحقيق مازن المبارك، ومحمد على حمد الله، مؤسسة الصادق للطباعة وانشر / طهران، ط١، سنة ١٣٧٨ هـ.

٥٣- شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك وعليه أضواء على الشرح، تأليف: عاصم بهجت البيطار، وعبد الفتاح الغندور، وحسن عبده الريس، مطبوعات وزارة التعليم العالي/ المملكة العربية السعودية، ط١، سنة ١٤٠٢ هـ، ٢ / ٢٦٠.

٥٤- إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار اليمامة / دمشق -بيروت، ط ٧، سنة ١٩٩٩م.١/٥٥٨.

٥٥- نفسه ٢/ ١٤٦، وينظر ٢/ ١٩٤.

٥٦- نفسه ٥/٢٠٣.

٥٧- نفسه ١/ ٥٥٩- ٥٦٠.

٥٨- البيان في روائع القرآن، عالم الكتب / القاهرة، ط ٢، سنة ٢٠٠٠ م، ص ١١٢ - ١١٣.

٥٩- (ما) المزعوم زيادتها، د. ت، سنة ٢٠٠٢٣م، ص ٧٦.

٦٠- نفسه ص ٨١.

٦١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن - تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر/ بيروت ط١، سنة ٢٠٠١ م، ٤ / ٢٧٧٣.

٦٢- نفسه ٤/ ٢٩٥٢.

٦٣- نفسه ١/٦٢٦٦.

٦٤- نفسه ١٤/٨٦١٨.

٦٥- معالم التنزيل (تفسير البغوي) تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية / بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥م، ١/ ٥٦٥.

٦٦- نفسه ٢/ ١٨٨.

٦٧- نفسه ٢/ ٢٣٨.

٦٨- نفسه ٤/ ٣٨١.

٦٩- نفسه ٦/ ٢٨٧.

٧٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان / الرياض، ط ١، سنة ١٩٩٨، ١/ ٦٤٧.

٧١- نفسه ٢/ ١٧٣.

٧٢- نفسه ٤/ ٢٣١.

٧٣- نفسه ٦/ ٢١٩.

٧٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفارس، د. ط، د.ت، ١/ ٥٣٣.

٧٥- نفسه ٢/ ١٣٢.

٧٦- نفسه ٢/ ١٦٩.

٧٧- نفسه ٥/ ٣٧٦.

٧٨- مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة / بيروت، ط ١، سنة ١٩٨٦، ٣ / ٢٠٧.

٧٩- نفسه ٣/ ٢٦٧.

٨٠- نفسه ٧/ ١٧٠.

٨١- نفسه ٩/ ٥٤٨.

٨٢- زاد المسير في علم التفسير- المكتب الإسلامي/ بيروت- دمشق،ط ٢، سنة ١٩٨٧، ١/ ٤٨٥.

٨٣- نفسه ٢/ ٢٤٣.

٨٤- نفسه ٢/ ٣١٣.

٨٥- نفسه ٥/ ٤٧٣.

٨٦- التفسير الكبير – دار إحياء التراث العربي / بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٧م، ٣ / ٤٠٥.

٨٧- الجامع لأحكام القرآن – دار الكتب العلمية / بيروت، د. ت، سنة ١٩٩٣م، مج ٣ / ٧.

٨٨- نفسه مج ٦/ ٨٤.

٨٩- نفسه مج ٦/ ١٨٩.

٩٠- تفسير النسفي- دار إحياء الكتب العربية/ فيصل عيسى البابي الحلبي،د.ط، د. ت، ١/ ١٩١.

٩١- نفسه ١/ ٢٦١.

٩٢- نفسه ٢/ ١٢٠.

٩٣- نفسه ٢/ ٢٩٧.

٩٤- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن) تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين - دار الكتب العلمية / بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٥، ١/ ٥٦٥.

٩٥- نفسه ٢/ ١٨٨.

٩٦- البحر المحيط - دار الفكر / بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٣م، ٣ / ٩٧.

٩٧- نفسه ٣ / ٩٧.

٩٨- نفسه ٦ / ٤٠٥.

٩٩- نفسه ٨ / ٣٤٣.

١٠٠- أنوار التنزيل و أسرار التأويل (تفسير البيضاوي) - دار الكتب العلمية / بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٩ م، ١/ ١٨٧.

١٠١- نفسه ١/ ٢٤٦.

١٠٢- نفسه ٢/ ١٠٤.

١٠٣- نفسه ٢/ ٥٣١.

١٠٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - دار الكتب العلمية / بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٢م، ٢/ ١٧٣.

١٠٥- نفسه ٢/ ٣٤٨.

١٠٦- نفسه ٥/ ٢٠٠.

١٠٧- نفسه ٨/ ١٧٦.

١٠٨- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)- دار إحياء التراث العربي / بيروت، ط٤، سنة ١٩٩٤، ٢ / ١٠٥.

١٠٩- نفسه ٢/ ٢٥٠.

١١٠- نفسه ٦/ ١٣٤.

١١١- نفسه ٩/ ٤١.

١١٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - تحقيق هشام البخاري، وخضر العكاري، المكتبة العصرية / بيروت، د. ط، سنة ١٩٩٧ م، ١ / ٤٩٥.

١١٣- نفسه ١/ ٦٧١، وينظر ٢/ ٢٨.

١١٤- نفسه ٣/ ٦٠٤.

١١٥- نفسه ٥/ ٣٦٨.

١١٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية / بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٤ م، ٢/ ٣١٨.

١١٧- نفسه ٣/ ١٨٤.

١١٨- نفسه ٩/ ٢٣٤.

١١٩- نفسه ١٥/ ٨٨.

١٢٠- التحرير والتنوير - دار سحنون للنشر و التوزيع/ تونس، د. ط، سنة ١٩٩٧م، ٤/ ١٧.

١٢١- نفسه ٩/ ٢٨.

١٢٢- نفسه ١٤/ ٢١٢.

١٢٣- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر/ دمشق -بيروت، ط ١، سنة ١٩٩١، ٤/ ١٣٨.

١٢٤- نفسه ٦/ ١٤.

١٢٥- نفسه ١٨ / ٣٩.

١٢٦- ينظر محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، دار غريب / القاهرة، د. ت، سنة ٢٠٠٣، ص ٣٣ - ص ٨٤.

المبحث الثالث

تناوب حروف الجر والتضمين

لعل التفاوت بين أهل اللغة في توجيه كلام العرب على مقتضى ما وقف بهم الاستقراء لصياغة ضوابط يحتكمون إليها، ويحكّمونها في تحليل عناصر الكلام، ودلالاتها، هو سر ما نحن فيه من خلاف بإزاء الوقوف على أسرار التعبير القرآني وإدراك لطائفه وارتقائه على تعبير العرب.

أشرنا في مواضع سابقة من هذا البحث إلى أننا سنقف على هاتين القضيتين: تناوب الحروف والتضمين لنبين ما انتهى إليه البحث فيهما، وما نتبناه من رأي.

رأينا أنّ من صور المشكل في باب المفردات، التعبير بالحروف وما يتفرع عنه من مسائل لذا خصصناهما بهذه الوقفة.

إنَّ النظم القرآني الذي هو مناط الإعجاز البياني يقرر أنّ " اللفظ في مكانه إذا أُبدل فسد معناه أو ضاعَ الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة"[1]. ومن هذا المنطلق نتناول قضية (تناوب حروف الجرِّ، أو الإضافة أو الصفات) [2] التي قال بها الكوفيون ومن شايعهم، ومنعها البصريون الذين وجدوا في (التضمين) خروجا من هذا المأزق، وقد توسعت هاتان القضيتان حتّى أشاعتا اضطرابا لغويا، ودعتا إلى تقديرات أخلَّت بالبيان، وتسللت إلى كتب التفسير، وقد تصدى لهذا باحثون كثر: منهم من تناول جانبا، مثل بنت الشاطئ في

دراساتها البيانية [٣]، ومنهم من انصرف إليها مفصلا، مثل محمد حسن عوّاد في دراسته الوافية الكافية (تناوب حروف الجر في لغة القرآن)، التي انتهى فيها إلى "إبطال وقوع بعض حروف الجر موقع بعضها الآخر... لأنّ في... هذا إشاعة للاضطراب اللغوي"[٤]. ومنه ننطلق، ونتبنى هذا الرأي.

لقد وصل إلينا تراث غني من كتب (الحروف ومعانيها) نشير إلى أشهرها ليقف عليها من يحاول أن يدرك سر الحروف ولطائف استعمالها، ليتبين حقيقة ما نذهب إليه:

- معاني الحروف، لأبي الحسن الرماني (ت ٣٨٤ هـ).
- الأزهية في علم الحروف، لأبي الحسن الهروي (ت نحو ٤١٥ هـ).
- الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي (ت ٧٤٩ هـ).
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام (ت ٧٦١).
- رصف المباني في حروف المعاني، للمالقي (ت ٧٧١ هـ).

ومن باب تأييد ما ذهب إليه محمد حسن عواد في إبطال هاتين القضيتين، ولإشاعة رأيه، وبيان ما يؤثر هذا المذهب في استكناه أسرار التعبير القرآني، وضرورة العناية به، وعدم إخضاعه لمقتضيات الصناعة اللغوية، وما وقفت عنده الضوابط عاجزة عن الوصول إلى المراد إلا بالتقدير الذي لم يكن محل اتفاق يوما عند أهل اللغة، نسوق هنا أمثلة تستوفي إبطال التناوب والتضمين:

- **الحرف (عن):**

وقفنا في دراستنا السابقة (سؤال في التفسير – محاولة في البحث عن منهج، المطبوعة في دار الفكر / دمشق سنة ٢٠٠٥م) على هذا الحرف لبيان دلالته في الآيتين:

الآية (٢٥) من سورة الشورى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

و الآية (١٦) من سورة الأحقاف: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾.

فلاحظنا القضية نفسها (تناوب الحروف) عند النحاة والمفسرين، وأنّ (عن) هنا بمعنى (من)، وحين استقرينا معاني (عن) وجدناها تترجح بين المعنى الواحد عند سيبويه (ت نحو ١٨٠ هـ) [٥]، وعشرة معانٍ عند ابن هشام (ت ٧٦١ هـ) [٦]، ونقل عنها المفسرون، وقررنا أن (عن) مقصودة هنا وأن الفعل (قبل عن) يفيد القطع في القبول بإزاء (قبل من) المستعمل أيضا في القرآن الكريم [٧]. وهذا يظهر الحاجة إلى إعادة النظر في كل ما قيل في (تناوب الحروف) !

ولعلّ ما قيل في الآية (٧١) من سورة طه: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ تنبّه عليه البيانيون من المفسرين وفي مقدمتهم الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) فقال: "شُبّه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه"[٨]. ردًا على من ذهب إلى أن (في) بمعنى (على)، أو تفيد الاستعلاء [٩].

وذهب النحاة والمفسرون في الآيتين موضع بحثنا:

- الآية (٦) في سورة الإنسان: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.
- والآية (٢٨) في سورة المطففين: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾.

إلى أنَّ (الباء) هما بمعنى (من)، أو أنَّ الفعلَ (يشرب) تضمن معنى (يروى، أو يلتذّ، أو ينتقع) على ما بسطناه سابقا، وقررنا أن (الباء) هنا بموضعها وأنّ تعدية الفعل (يشرب) بها تؤدي معنى جديدا من خلال التعبير القرآني إذ جعل (العين) مشروبا بها منها في آن، وهذا ارتقاء بياني بالفعل (شرب + الباء) مع معنى لم يألفه الكلام العربي، ولم تعرفه أساليب العربية، ولم

يدرك أسراره أهل اللغة بما صاغوه من ضوابط لذا فزعوا إلى قضيتي (التناوب والتضمين).

أما التضمين الذي قال به البصريون، وحاولوا استثماره لبيان أسرار التعبير بعامة والتعبير القرآني بخاصة، فلم يستطع أن يحقق لنا ملحظا بيانيا ننطلق معه للإفصاح عن سرِّ التعبير القرآني، ولسنا هنا نحاول أن نحجِّرَ واسعا ربّما يحقق تفسيرا مناسبا لكننا نراه قاصرا إذ يفتح الباب على مصراعيه للتقدير، فقد لاحظنا أن المفسرين ذهبوا إلى الفعل (يشرب) في الآيتين تضمن معنى:

- يروى.
- أو يلتذّ.
- أو ينتقع.
- أو.....

والباب مفتوح لمزيد من التقدير ! ومن هنا نحرص أن نشير بالاستغراب إلى قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي قال بقياسية (التضمين) على وفق شروط ثلاثة [10]، والذي جاء مجحفا بأساليب العربية، ومعينا على ضعف الإحساس اللغوي الذي ارتفع به التعبير القرآني ومنحه مساحة واسعة لمن يدرك أسراره، ويفكّ عناصره، ويتخذه إماما في نظمه ونثره.

وقد ردّ على هذا القرار أكثر من باحث، وخلص إلى القول فيه: "ما زالت أدلة التضمين واهية منهارة"[11].

إنّ اخضاع التعبير القرآني للقوانين التي صاغها أهل اللغة ليس جائزا بل العكس هو الصحيح لأنه كلام الله سبحانه وتعالى وإن نزل بلسان عربي مبين ولأنه معجز في وجهه البياني فكان التحدي وكان الانبهار وكان الإعجاز ! وربما نعذر الرعيل الأول من أهل اللغة الذين أرادوا أن يخدموا القرآن

بالاحتجاج له، فقد آن الأوان أن نتخذه منطلقنا وحجة على العربية لإعادة بناء كثير من قواعد العربية في ضوء استعماله.

ونقرر أخيرا أن لا تناوب ولا تضمين وأن التعبير القرآني:

(يَشْرَبُ بِهَا) في الآيتين جاء بمعنى جديد لم يكن فيه من قبل مما يقتضي أن نتعامل مع سائر التعبير القرآني بأصالة الاستعمال ورفض التقدير والتوجيه اللذين يخرجان بهذا الأسلوب عما بُني له وتقرر، وأن نحتج بالقرآن على العربية وليس العكس، لأنه وظف عناصر الكلام في دلالات جديدة أضافت إلى أساليب العربية طرائق أخرى للتعبير والاستعمال جديرة أن تكون منطلقا لصياغة ضوابط أخرى. والله الموفق للصواب.

وخلاصة ما وصلنا إليه في هذا المبحث:

١- للاستعمال القرآني خصوصية ينبغي للباحث فيه ألا يخضعه لضوابط العربية بل يجعله مثالا يحتذى به في نظم الكلام وتأليفه.

٢- ليس هناك حرف زائد في كلام العرب فضلا عن التعبير القرآني.

٣- ليس هناك (تناوب في الحروف) ولا (التضمين)، وعلى الباحث عن أسرار الدلالة أن يوسع اطلاعه وتذوقه محللا عناصر الكلام الجديدة ليوضح دورها في المعنى.

الهوامش

١- الخطابي (ت ٣٨٨ هـ): بيان إعجاز القرآن -ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن- تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف / مصر، ط٢، سنة ١٩٦٨ م، ص ٢٩.

٢- ينظر ابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ): شرح المفصل - مكتبة المثنى / القاهرة، د. ط، د. ت، ٨ / ٧.

٣- ينظر التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف / مصر، الجزء الأول والثاني، والإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق. دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف/ مصر، ط٢، سنة ١٩٨٤ م.

_ وتنظر هدى محمد متولي إبراهيم السداوي في بحثها:

أ - (عن) في اللغة العربية و القرآن الكريم.

ب- (ما) المزعوم زيادتها.

الزقازيق، سنة ٢٠٠٣م.

_ وينظر كاصد الزيدي: دراسات نقدية في اللغة والنحو، دار أسامة / عمّان، ط١، سنة ٢٠٠٣م، ص ٩٨ وما بعدها.

٤- تناوب حروف الجر في لغة القرآن، دار الفرقان / عمّان، ص ٥.

٥- ينظر الكتاب - تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٢، سنة ١٩٨٢ م، ٣/ ٦٤٠.

٦- ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب - تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، طبعة مؤسسة الصادق / طهران، ١/ ١٩٦ - ١٩٨.

٧- ينظر سعيد جاسم الزبيدي: سؤال في التفسير، محاولة في البحث عن منهج، دار الفكر- دمشق، ط١، سنة ٢٠٠٥ م، ص ٢٨ - ٢٩.

٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان / الرياض، ط ١، سنة ١٩٩٨، ٤/ ٩٧.

٩- ينظر ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ١/ ٢٢٤.

١٠- ينظر عباس حسن: النحو الوافي / دار المعارف / مصر، ٢ / ٥٩٤.

١١- ينظر نفسه ٢/ ٥٩٥.

الفصل الثاني

ظواهر لغوية

- المبحث الأول : الأضداد
- المبحث الثاني: الترادف
- المبحث الثالث: المشترك اللفظي
- المبحث الرابع: المعرَّب

الفصل الثاني: ظواهر لغوية

من البدهي عند أهل اللغة: قدامى و محدثين، أنَّ الألفاظ متناهية، والمعاني غير متناهية، وأن الأصل في كلِّ لغة أن يكون للفظ الواحد معنى واحد. ولكنَّ هذه الألفاظ قد تنمو، وتغتني، وتتعدد دلالاتها على وفق عوامل: لهجية، أو اجتماعية، أو نفسية، أو ملابسات قول، أو اقتراض، أو... ومن هذا كلّه وغيره غنيت العربية، وارتقى التعبير بها، فارتفعت، وترشحت لأن تكون لغة الكتاب المعجز الذي مدّها بآفاق رحبة: مفردةً، وتركيباً، وتصويراً، لم تألفها من قبل، فانفتح لها، وبها، مجال واسع، صال به أصحاب المعاني، وجال أهل البيان، لتحليل التعبير القرآني، والوقوف على أسراره، وما زالوا يحاولون اجتلاء مكامن إعجازه، فكان لنا من ذلك تراث ضخم يعين من يتصدى للبحث فيه، ومواصلة ما أنجزه السابقون جزاهم الله عنا خيرا، وتكرار المحاولة لاستكمال ما فات، وحلّ ما علق من مشكلات لغوية لأنّ "لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، لا نعلم يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنّه لا يذهب منه شيء وعلى عامتها حتّى لا يكون موجودا فيها من لا يعرفه"[1].

ولما كان هدفنا التعبير القرآني ومفرداته من حيثُ عدّ بعضُها مشكلا، لبيان حقيقة إشكاله، ولأننا نذهب إلى أن ما يسمى بـ (مشكل القرآن) وجه من وجوه الإعجاز البياني، فإن مقولة: "ما من لفظ فيه يمكن أن يقوم غيره مقامه"[2]. منطلق صالح للوقوف على ظواهر لغوية أربع: الأضداد، والترادف،

والمشترك اللفظي، والمعرّب، لكثرة الجدل الدائر فيها، والخلاف عليها، فانقسم العلماء، والباحثون على ثلاثة:

- منهم من يقرّ بوجود هذه الظواهر في العربية، والقرآن الكريم، لكنهم يتفاوتون بينهم في سعة دائرتها: فمنهم من يفتح الباب على مصراعيه، فيحطب فيها تكثراً ليفاخر ! ومنهم من يقيّدها، ويحصرها في مفردات قليلة يمنحها السياق مدى تتحرك فيه مع أمن اللبس.
- ومنهم من ينكر وقوعها إطلاقا ويعدها خللا يسبب اضطرابا لغويا، فاتخذها "أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب أنّ ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم، وقلة بلاغتهم، وكثرة الالتباس في محاورتهم"(٣). وعدّها المستشرقون مثلبة (٤)، وآخرون ترهلا ينهك اللغة (٥).
- وفريق ثالث وجد تراثا قائما فنظر فيه نظرة فاحصة ناقدة، ودرسه بعناية فرفض منه ما رفض، وأقرّ منه ما وجد له مسوّغا في وقوعه من لهجات، أو ملابسات القول، أو الانزياح لأداء معنى جديد، فحالفه الحظّ في كثير مما ذهب إليه، ليوازن بين الفريقين السابقين: المؤيد والمنكر، وليجد حلولا مناسبة لهذه الظواهر الأربع، فيؤشر إيجابيتها، ويستثمرها لغويا محللا نصوص العربية، والآيات القرآنية بما وصل إليه.

ومن هذا الواقع اللغوي نحاول أن نبحث في هذه الظواهر من حيث انتهى البحث فيها بروح من الموضوعية لنقرر رأيا يمكن الاطمئنان إليه لا سيما في التعبير القرآني و (مشكله) لنتخذه شاهدا حيا على أنه وجه من وجوه الإعجاز البياني ليتكامل مع الوجوه الأخرى للإعجاز التي لم يهتد إليها البشر حتّى الآن.

المبحث الأول: الأضداد

أشار إليها سيبويه (ت ١٨٠ هـ) في (باب اللفظ للمعاني) فقال: "اِعلم أنّ من كلامهم ـ يعني العرب ـ... اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين"[٦]. وقد ابتليت هذه الظاهرة بمثل ما ابتليت الظواهر الأخرى: الترادف، والمشترك اللفظي، والمعرّب، من حيث الموقف منها: بين مؤيد ومنكر، ومن حيث الكثرة والقلة، ولكلٍّ أدلة وحجج، حتى عدّها الخليل بن أحمد (ت نحو ١٧٥ هـ) من عجائب الكلام واتساع العربية فقال في مادة (ش ع ب): "هذا من عجائب الكلام ووسع اللغة والعربية أن يكون الشعب تفرّقا، ويكون اجتماعا، وقد نطق به الشعر"[٧]. وأنكر محمد حسين آل ياسين الذي تجرد لدراسة الأضداد "أن يكون التضاد أصيلا في الوضع"[٨]. ولعل ما اعتل به القدامى والمحدثون في أنها من لهجات مختلفة، أو الاتساع في الكلام، أو قرائن الكلام وملابساته [٩]، أو ما جاء لنكتة بلاغية [١٠]، لا يختلف فيه اثنان من غير افتعال ولا قسر. وقد ألّف في (الأضداد) جمهرة من العلماء القدامى وصل إلينا من كتبهم محققة مطبوعة:

١- ثلاثة كتب في الأضداد: للأصمعي (ت ٢١٦ هـ)، والسجستاني (ت ٢٥٥ هـ)، وابن السكيت (ت ٢٤٦ هـ)، وألحق بها أضداد الصاغاني (ت ٦٥٠ هـ)، حققها ونشرها المستشرق أوغست هفنر في المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٩١٣م.

٢- الأضداد: لمحمد بن المستنير المعروف بقطرب (ت ٢٠٦هـ) حققها ونشرها المستشرق هانس كوفلر في مجلة إسلاميكا، المجلد الخامس، سنة ١٩٣١م.

٣- الأضداد: لسعيد بن المبارك المعروف بـ (ابن الدهان ت ٥٦٩ هـ) حققه ونشره الشيخ محمد حسن آل ياسين في مجموعته المعروفة بـ (نفائس المخطوطات) طبعت في النجف الأشرف، سنة ١٩٥٢م.

٤- كتاب الأضداد: لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) حقق ونشر ثلاث مرات [(١١)]:

أ - المستشرق هوتسما في ليدن سنة ١٨٨١م.

ب - عن طبعة هوتسما هذه طبعة في القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ.

ج - محمد أبو الفضل إبراهيم في مطبعة حكومة الكويت، ط١، سنة ١٩٦٠م، و ط ٢،سنة ١٩٨٦ م.

٥- الأضداد في كلام العرب: لأبي الطيّب اللغوي (ت ٣٥١ هـ)، حققه ونشره عزّة حسن، في دمشق، سنة ١٩٦٣م.

وغير هذا محقق مطبوع [(١٢)].

وممن درس ظاهرة (الأضداد) من المعاصرين:

١- عبد الله الجبوري: الأضداد وموقف ابن درستويه منها، بحث منشور في مجلة المورد العراقية، المجلد الثاني، العدد الثالث سنة ١٩٧١ م.

٢- محمد حسين آل ياسين، رسالة ماجستير مطبوعة (الأضداد في اللغة)، مطبعة المعارف / بغداد، سنة ١٩٧٤م.

٣- ربحي كمال: التضاد في ضوء اللغات السامية، بيروت، سنة ١٩٧٥م.

٤- المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير: أصل نظرية الأضداد في اللغة العربية، بحث ترجمه حامد طاهر منشور في مجلة اللسان العربي / الرباط، المجلد الخامس عشر، الجزء الأول، ص ١١٢، ستة ١٩٧٧م.

ومما تناثر من بحوث في كتب الدراسات اللغوية (فقه اللغة) وغيرها:

١- فقه اللغة: لعلي عبد الواحد وافي، القاهرة، سنة ١٩٥٦م، ص ١٩٠ وما بعدها.

٢- دراسات في فقه اللغة: لصبحي الصالح، دار العلم للملايين/ بيروت، ط١، سنة ١٩٦٠م، ص ٣٠٩ - ٣١٣.

٣- فصول في فقه العربية: لرمضان عبد التواب، ط١، سنة ١٩٧٣م، ص ٣٣٦ - ٣٥٧.

٤- كلام العرب من قضايا اللغة العربية: لحسن ظاظا، دار النهضة العربية / بيروت، سنة١٩٧٦، ص١١٢ - ١١٦.

٥- الدراسات اللغوية عند العرب حتى نهاية القرن الثالث، دار ومكتبة الحياة / بيروت، ط١، سنة ١٩٨٠م، صـ ٤٢١.

٦- عوامل التطور اللغوي ـ دراسة في نمو وتطور الثروة اللغوية ـ: لأحمد عبد الرحمن حمّاد، مطابع البيان التجارية / دبي، د. ت، صـ ٧٧ - ٨٤.

هذا لمن يريد أن يستزيد، ويستجلي هذه الظاهرة، ويقف على أسبابها ومسوغاتها، وما اختلف فيه منها.

أما ما ورد منها في القرآن الكريم فقد عنيت به كتب الأضداد والتفسير وكتب علوم القرآن وغيرها، ونسوق هنا آيتين كريمتين مما قيل أن مفردتين فيهما من الأضداد، ونعرض ما قيل فيهما ثم نحللهما ونخلص إلى رأي فيهما.

المثال الأول:

قال تعالى في سورة طه الآية (١٥): (إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى).

قال الطبري (ت ٣١٠ هـ):

"فعلى ضم الألف من أخفيها قراءة قرّاء أمصار الإسلام"[13]. ولم أجد أحداً من القراء المعروفين قرأ بفتح همزة (أَخْفِيهَا) إلا ما روي عن ابن كثير، والكسائي، وعاصم، وأبي الدرداء، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، ومجاهد، وحميد[14]، وفي هذه القراءة ومنها صار الخلط في معنى (أُخْفِيهَا) وسنوضح هذا لاحقا.

فمما قاله أهل اللغة والمفسرون في هذه الآية:

قال الفرّاء (ت ٢٠٧ هـ):

"قوله: (أَكَادُ أُخْفِيهَا)، قرأت القراء (أَكَادُ أُخْفِيهَا) بالضم، وفي قراءة أبي: (إن الساعة آتية أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها) وقرأ سعيد بن جبير (أَخْفِيهَا) بفتح الألف... من خفيتْ، وخفيتُ: أظهرتُ، وخفيتُ: سترت"[15].

وقال أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ):

"(أَكَادُ أُخْفِيهَا)، له موضعان: موضع كتمان، وموضع إظهار كسائر حروف الأضداد"[16].

وقال يحيى بن المبارك اليزيدي (ت ٢٣٧ هـ):

"(أَكَادُ أُخْفِيهَا) أُظهرها و أخفيها بمعنى واحد"[17].

وقال الطبري (٣١٠ هـ):

"(أَكَادُ أُخْفِيهَا) فعلى ضم الألف... بمعنى أكاد أُخفيها من نفسي لئلا يطلع عليها أحد... وقال آخرون: إنما هو (أَكَادُ أَخْفِيهَا) بفتح الألف من أخفيها بمعنى أظهرها... إن للإخفاء في كلام العرب وجهين: أحدهما الإظهار، والآخر الكتمان، وإن الإظهار في هذا الموضع أشبه بمعنى الكلام"[18].

وقال أبو بكر الأنباري (ت ٣٢٨ هـ).

"وأخفيت من حروف الأضداد، يقال: أخفيت الشيء إذا سترته، وأخفيته إذا أظهرته، قال الله عزّ وجلّ: (إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) فمعناه أسترها، وفي قراءة أُبي: (أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها) فتأويل (من نفسي) من قبلي، ومن غيبي...، ويقال معنى الآية: إن الساعة آتية أكاد أظهرها، ولا يقع هذا ـ أعني الذي لا ألف فيه ـ على الستر والتغطية، قال الفراء: حدثنا الكسائي عن محمد ابن سهل عن ورقاء عن سعيد بن جبير أنه قرأ: (أَكَادُ أَخْفِيهَا) فمعنى أخفيها أظهرها... قال أبو بكر: يجوز أن يكون معنى الآية: إن الساعة آتية أكاد آتي بها فحذف (آتي) لبيان معناه"[19].

قال ابن جنّي (ت ٣٩٢ هـ):

"ومن ذلك قراءة سعيد بن جبير ورويت عن الحسن ومجاهد (أَكَادُ أَخْفِيهَا) بفتح الألف، قال أبو الفتح: أخفيت الشيءَ: كتمته وأظهرته جميعا وخفيته بلا ألف أظهرته البتة، فمن ذلك من قرأ (أَخْفِيهَا)، قالوا معناه أظهرها، قال أبو علي: الغرض فيه أزيل عنها خفاءها"[20].

قال الطوسي (ت ٤٦٠ هـ):

" (أَكَادُ أَخْفِيهَا) أكاد لا أظهرها إلى أحد في قول ابن عباس، والحسن، وقتادة،... وقيل (أُخْفِيهَا) بضم الألف بمعنى أظهرها"[21].

وقال الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ):

"خفي الشيء خُفيةً استتر... وخفيته أزلتُ خفاه وذلك إذا أظهرته، وأخفيته أوليته خفاءً وذلك إذا سترته ويقابل به الإبداء والإعلان"[22].

وقال البغوي (ت ٥١٦ هـ):

"أكثر المفسرين قالوا: معناه أكاد أُخفيها من نفسي، وكذلك هو في مصحف أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود: أكاد أُخفيها من نفسي فكيف

يعلمها مخلوق، وفي بعض القراءة: فكيف أظهرها لكـم... وقـرأ الحسن بفـتح الألف أي أظهرها، يقال: خفيت الشيء إذا أظهرته و إذا سترته"[٢٣].

وقال الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ):

"أي أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها... وقيل: معناه: أكاد أخفيها من نفسي، ولا دليل في الكـلام علـى هـذا المحـذوف، ومحـذوف لا دليل عليه مطرح... وعن أبي الدرداء وسعيد جبير (أَخْفِيهَا) بالفتح: من خفـاه إذا أظهـره أي قـرب إظهـاره... وقـد جـاء في بعـض اللغـات: أخفـاه بمعنـى خفاه..."[٢٤].

وقال ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ):

"قرأ ابن كثير والحسن وعاصم (أَكَادُ أَخْفِيهَا) بفتح الهمزة بمعنى أظهرهـا، وقرأ الجمهـور (أُخْفِيهَا) بضم الهمزة. و اختلف المتأولون في معنى الآية. فقالت فرقة: معناه أظهرها، وأخفيت من الأضداد، وهـذا قـول مختـلّ. وقالـت فرقـة: (أَكَادُ أُخْفِيهَا) من نفسي. وقالت فرقـة: المعنـى: (إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَـةٌ أَكَـادُ) وتمّ الكلام... وهذا قلق. وقالت فرقة: أكاد زائدة لا دخول لها في المعنى.... وقالت فرقة: أكاد بمعنى أريد.... و قالت فرقة: أكاد على بابها بمعنى أنها مقاربـة مـا لم يقع... ولا بد من ظهورها، هذا تلخيص هـذا المعنـى الـذي أشـار إليـه بعـض المفسرين وهو الأقوى عندي"[٢٥].

لقد استوفى ابن عطية كلّ ما قاله المفسرون من قبله ولم يكن لأحـد بعـده كلام في غير ما ذكر.

وقد تكررت هذه الأقوال على تفاوت فيها عند مفسرين ولغويين آخـرين مثل:

الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) [٢٦]، و ابـن الجـوزي (ت ٥٩٧) [٢٧]، و الفخـر الـرازي (ت ٦٠٤ هـــ) [٢٨]، والعكــبري (ت ٦١٦ هـــ) [٢٩]، والقــرطبي

(ت٦٧١هـ) [٣٠]، والخازن (ت ٧٢٥ هـ) [٣١]، وأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)[٣٢]، والبيضاوي (ت ٧٩١ هـ) [٣٣]، وأبي السعود (ت ٩١٥ هـ) [٣٤]، والشوكاني (١٢٥٠ هـ) [٣٥]، والآلوسي (ت ١٢٧٣ هـ) [٣٦]، وعبد الكريم الخطيب (معاصر) [٣٧].

وبعد:

فما المعنى الذي نرجحه هنا ؟

نقول:

١- إن الله سبحانه وتعالى قال في محكم كتابه: (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) من الآية ٣٤ في سورة لقمان، وفي هذا لا يختلف أحد، أسوق هذه الآيةَ لأردَّ على من فسّر الآية ١٥ من سورة طه موضع البحث بقوله: (إن الساعة آتية أكاد أخفيها من نفسي) وقد سبق الزمخشري إلى ردِّ ما كتبه أُبي بن كعب وعبد الله بن مسعود في مصحفيهما، وعدَّ ذلك مطرحا ! فعلم الساعة عند الله ولا يعلم به أحد غيره.

٢- إنَّ سياق الآية بتمامها: (إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى). فتأمل: آتية، أكاد، تجزى، كل نفس، بما تسعى.

فالسياق يتشكل من الآية كلها ليقول: إنها آتية، يقارب الله أن يظهرها، لتعلم كل نفس (مؤمنة وغير مؤمنة) جزاءها بما فعلت. وقد رجح الطبري الإظهار لأنه كما قال أشبه بالمعنى !

٣- أما ضدّية (خ ف ي) فقد تشكلت من تداخل فعلين: مجرده ومزيده، وأن الهمزة للسلب بلا خلاف، وأن إدراك أبي علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) الذي أوردته روايات اللغويين والمفسرين سليم لغويا ودلاليا حين حصر الغرض فيه بإزالة الخفاء ! وهذا التداخل اللغوي بين المبنيين (خفي /

أخفى) متركب مما أوقع المفسرين واللغويين بهذا اللبس الذي لم يكن حين نطق الشعرُ بالمعنيين: قال امرؤ القيس:

فإنْ تدفنوا الداء لا نُخْفِه وإنْ تبعثوا الحرب لا نقعد

أراد لا نظهره. والمعنى الآخر (نكتم) أظهر من أن يستشهد عليه !

٤- نرجح هنا أن معنى الآية (أكاد أظهرها) وقد قال به أبو علي الفارسي، والطبري، وابن عطية، والزمخشري، وهؤلاء هم من هم في العلم والتفسير، فضلا عن حقائق اللغة التي ينطلقون فيها، وبهذا يتبين أن لا ضدية في معنى (أخفِيهَا) في سياقها في الآية الكريمة، لأن المقصود بها معنى واحد ليحذر الله الناس لكي يستقيموا ويعملوا بما يحقق لهم جزاء عادلا.

المثال الثاني:

قوله تعالى في سورة التكوير الآية (١٧): (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ).

قيل في (عَسْعَسَ): إنها من الأضداد، ونعرض هنا ما قاله اللغويون، والمفسرون فيها:

قال الخليل بن أحمد (ت نحو ١٧٥ هـ):

"عسعس الليل: أقبل ودنا"[٣٨]، نصت على هذا ثلاث طبعات لكتاب العين:

١- طبعة مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي.

٢- طبعة هادي حسن حمودي.

٣- طبعة دار إحياء التراث العربي / بيروت ٢٠٠١ م.

ورجعت إلى مختصر كتاب العين - للخطيب الإسكافي (ت ٤٢١ هـ) فوجدت فيه: "عسعس الليل أقبل وأدبر"[٣٩]. وهذا يعني أن في كتاب العين سقطا لم يقف ناشروه على نسخة كاملة، وإلا فلا يعقل أن يتصرف مختصره

بالأصل، ويعضد ما ورد في المختصر ما نقله المفسرون عن الخليل على ما سيأتي لاحقا.

وقال الفرّاء (ت ٢٠٧ هـ):

"اجتمع المفسرون على أن معنى (عَسْعَسَ) أدبر، وكان بعض أصحابنا يزعم أن (عَسْعَسَ) دنا من أوله وأظلم"[٤٠].

وقال أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ):

"(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) قال بعضهم: إذا أقبلت ظلماؤه، وقال بعضهم: إذا ولّى ألاّ تراه"[٤١].

وقال يحيى بن المبارك اليزيدي (ت ٢٣٧ هـ):

"(عَسْعَسَ)، قال بعضهم: إذا أقبلت ظلماؤه، وقال آخرون: إذا ولّى"[٤٢].

وقال الطبري (ت ٣١٠ هـ):

"فقال بعضهم: عنى بقوله: (إِذَا عَسْعَسَ) إذا أدبر... وحدثني الحارث قال... إقباله، ويقال إدباره... وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: إذا أدبر وذلك بقوله: (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) فدلّ بذلك على أن القسم بالليل مدبرا، وبالنهار مقبلا"[٤٣].

وقال الزجاج (ت ٣١١ هـ):

"يقال عسعس الليلُ إذا أقبل، وعسعس إذا أدبر، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله و إدباره في آخره"[٤٤].

وقال أبو بكر الأنباري (ت ٣٢٨ هـ):

"وعسعس حرف من الأضداد يقال: عسعس الليل إذا أدبر، وعسعس إذا أقبل"[٤٥].

وقال النحاس (ت ٣٣٨ هـ):

"(إِذَا عَسْعَسَ)، قال الفراء أجمع المفسرون على أنه إذا أقبل وهذا غلط، روى مجاهد عن ابن عباس (إِذَا عَسْعَسَ) إذا أدبر"[٤٦].

وقال الطوسي (ت ٤٦٠ هـ):

"ومعنى (عَسْعَسَ) أدبر بظلامه، وفي قول أمير المؤمنين، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وقال الحسن: أقبل بظلامه"[٤٧].

وقال الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ):

"(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) أي أقبل وأدبر، وذلك في مبدأ الليل، ومنتهاه"[٤٨].

قال البغوي (ت ٥١٦ هـ):

"قال الحسن: أقبل بظلامه، وقال الآخرون: أدبر"[٤٩].

وقال الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ):

"عسعس الليل وسعسع: إذا أدبر... وقيل عسعس: إذا أقبل بظلامه"[٥٠].

وقال ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ):

"وعسعس الليل في اللغة: إذا كان غير مستحكم الإظلام، وقال الحسن... ذلك في وقت إقباله... وقال زيد بن أسلم، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ذلك عند إدباره... ويرجح هذا قوله بعد: (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) فكأنهما حالان متصلتان... وقال المبرد...: أقسم بإقباله و إدباره، وقال الخليل: يقال عسعس الليل وسعسع إذا أقبل وأدبر"[٥١].

وقال الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ):

"أي إذا أدبر بظلامه عن علي (ع)، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقيل: أقبل بظلامه عن الحسن"[٥٢].

وقال ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ):

"قوله تعالى: (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) فيه قولان: أحدهما: ولّى، قاله ابن عباس، وابن زيد، والفراء. والثاني: أقبل، قاله ابن جبير، وقتادة، قال الزجاج: يقال: عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس إذا أدبر واستدل من قال: إن المراد إدباره بقوله تعالى: (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)"[٥٣].

وقال الفخر الرازي (ت ٦٠٤ هـ):

"قوله تعالى: (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) ذكر أهل اللغة أن (عَسْعَسَ) من الأضداد، يقال: عسعس الليل إذا أقبل وعسعس الليل إذا أدبر"[٥٤].

وقال القرطبي (ت ٦٧١ هـ):

"قال المبرد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره"[٥٥].

وقال النسفي (ت ٧١٠ هـ):

"أقبل بظلامه أو أدبر فهو من الأضداد"[٥٦].

وقال الخازن (ت ٧٢٥ هـ):

"أي أقبل بظلامه، وقيل أدبر"[٥٧].

وقال أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ):

"قال الفراء: عسعس الليل وعسس إذا لم يبق منه إلا القليل وقال الخليل: عسعس الليل أقبل وأدبر، قال المبرد هو من الأضداد"[٥٨].

وقال البيضاوي (ت ٧٩١ هـ):

"أقبل بظلامه أو أدبر، وهو من الأضداد"[٥٩].

وقال السيوطي (ت ٩١١ هـ):

"(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)، قال إقباله ويقال إدباره"[٦٠].

وقال أبو السعود (ت ٩٥١ هـ):

"(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) أي إذا أدبر ظلامه أو أقبل فإنه من الأضداد... وقيل معنى إقبال ظلامه أوفق لقوله تعالى: (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)"[٦١].

وقال الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ):

"قال أهل اللغة: هو من الأضداد، يقال عسعس الليل إذا أقبل وعسعس إذا أدبر، ويدل على أن المراد هنا أدبر قوله: (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)"[٦٢].

وقال الآلوسي (ت ١٢٧٣ هـ):

"أي أدبر بظلامه أو أقبل وكلاهما مأثوران عن ابن عباس وغيره وهو من الأضداد عند المبرد"[٦٣].

وقال ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ):

"وقال المبرد والخليل هو من الأضداد"[٦٤].

وقال عبد الكريم الخطيب (معاصر):

"عسعس الليل أي قفل راجعا وذهب ظلامه الذي كان مخيما على الكون"[٦٥].

وقال محمد جواد مغنية (معاصر):

"وعسعس الليل من الأضداد يستعمل بمعنى أقبل وأدبر، والمراد هنا الإدبار لقوله تعالى في سورة المدثر الآية (٣٣): (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ)"[٦٦].

وقال وهبة الزحيلي (معاصر):

"عسعس: أقبل بظلامه، أو أدبر، فهو من ألفاظ الأضداد... أي و الليل إذا أقبل بظلامه لما فيه من الرهبة، وهذ هو الأولى "[٦٧].

وبعد:

فقد ظهر من أقوال أهل اللغة وجمهرة المفسرين أنَّ (عَسْعَسَ) من ألفاظ الأضداد، فهل تؤدي ضديتُها المعنى في الآية الكريمة ؟

نقول:

إن المدى الدلالي ل(عَسْعَسَ) يتحرك في هذين الاتجاهين:

فالقسم بالليل بحاليه: إقباله وإدباره يسمح به سياق الآية، ويرجح سياق الآية الثانية (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أيضا هذين المعنيين، فتنفس الصباح يعني مبدأه وإقباله مما يقتضي إقبال الليل، أو أن إدبار الليل يؤذن لتنفس الصبح وإقباله، وهذا سرُّ التعبير القرآني أن يتحرك في هذا المدى الدلالي الذي يسمح به السياق، فإنْ شئتَ رجحّت الإقبال، و إنْ شئتَ رجحّت الإدبار، وكلاهما وارد، لأنَّ المعنيين يرجعان إلى الظلام: أوله، و آخره، ولا تناقض، ولا ضدّية ! فقد كان " المحققون من علماء العربية ينكرون الأضداد، ويدفعونها"[٦٨].

نخلص من هذين المثالين:

- الآية (١٥) من سورة طه: (أَكَادُ أُخْفِيهَا).
- الآية (١٧) من سورة التكوير: (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ).

إلى ما يأتي:

١- أجمع أهلُ اللغة والمفسرون على وقوع الأضداد في هاتين الآيتين.

٢- الفعل (خ ف ي) تداخلت فيه لغتان، ووقوع الأضداد من لغتين لا ينكره أحد، تؤيده قراءتان.

٣- الفعل (عَسْعَسَ) تحرك في مدى دلالي يتيح أن يمنح معنيين يلتقيان في أصل واحد: الظلام: بين أوله وآخره.

٤- ونرى أن ليس في الآيتين أضداد، بل سياق يجرّه مَنْ يفهمه إلى الوجهة التي يريد.

٥- خصوصية التعبير القرآني تتجلى في قدرته على أن يتحرك بين عناصر سياق في التحليل اللغوي إلى المراد الذي يوجهه اللغوي أو المفسر على وفق معطيات التركيب وملابسات القول. و الله أعلم بمراده.

المبحث الثاني: الترادف

ذكر سيبويه (ت نحو ١٨٠ هـ) بقوله: "اِعلم أنَّ من كلامهم... اختلاف اللفظين والمعنى واحد"[٦٩] وانطلق اللغويون في حركة واسعة بين تأييد، وإنكار، لهذه الظاهرة، واجتمع لفريق منهم ثروة لغوية: فللحجر سبعون اسما عند الأصمعي (ت ٢١٦هـ) [٧٠]، وعند حمزة الأصفهاني (ت ٣٦٠ هـ) أربعمائة اسم للدواهي [٧١]، وللسيف عند ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) خمسون اسما، وللحية مئتا اسم، وللأسد خمسمائة اسم [٧٢]، وأنكرها غيرهم [٧٣].

وذهب أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) إلى أن يجرد كتابه (الفروق اللغوية) لبيان علة الفرق بين الألفاظ التي قيل بترادفها لا سيما في القرآن الكريم، منها: القسم والحلف [٧٤]، و أرسل وبعث [٧٥]، فوفّق في بعضها، وتكلف في بعضها الآخر !

ومن منطلق أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، فهل وقع فيه من الألفاظ المترادفة ما وقع فيها ؟

وقبل أن نجيب على هذا، لننظر في بعض المؤلفات في الترادف قديما، وحديثا، منها:

١- ما اختلفت ألفاظه، واتفقت معانيه: للأصمعي (ت ٢١٦هـ)، حققه ونشره مظفر سلطان، دمشق، سنة ١٩٦٤، وحققه أيضا ماجد حسن الذهبي ونشره، دار الفكر / دمشق سنة ١٩٨٦م.

٢- الألفاظ المترادفة: لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤ هـ)، عُني به: محمد محمود الرافعي، و محمد محمود الشنقيطي، المطبعة الحمودية التجارية / القاهرة، سنة ١٣٢١هـ.

٣- الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف: لمجد الدين الفيروزأبادي (ت ٨١٧ هـ)، ولم يصل إلينا بعد، وله أيضا: ترقيق الأسل لتصفيق العسل[٧٦].

ومن الدراسات والبحوث المعاصرة:

١- الترادف في اللغة: د.حاكم مالك الزيادي، طبعة وزارة الثقافة والإعلام / بغداد سلسلة دراسات (٢٢)، سنة ١٩٨٠ م.

٢- أسرار الترادف في القرآن الكريم: علي اليمني الدردير، دار ابن حنظل / الفيوم ـ مصر، سنة ١٩٨٦ م.

٣- حول طابع الكلمات المترادفة في اللغة العربية الفصحى، البروفسور ف. م. بيلكين، ترجمة د.جليل كمال الدين، بحث ـ منشور في كتاب المورد ـ دراسات في اللغة، دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد، ط ١، سنة ١٩٨٦ م، ص ٢٠١ - ٢١١.

٤- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم: د. محمد عبد الرحمن بن صالح الشايع، مكتبة العبيكان / الرياض، ط١، سنة ١٩٩٣م.

٥- الترادف في الحقل القرآني: د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة / بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م.

٦- الترادف وأشباه الترادف في القرآن الكريم: د. أحمد مختار عمر، الفصل الرابع من كتاب: دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، عالم الكتب/ القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١ م.

وغير هذا مما تناثر في كتب فقه اللغة [٧٧].

ولعلّ ما قاله ابن الأعرابي (ت ٢٣١ هـ): "كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كلّ منهما معنى ليس في صاحبه، ربّما عرفناه فأخبرنا به، وربّما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله"[٧٨] منطلق أصيل للبحث في الفروق الدقيقة بين الألفاظ، ومحاولة التنبيه عليها، لاستعمالها المناسب، ومنحها المعنى الذي تؤديه في سياقها. "وقد يكون الفرق دقيقا لا ينتبه له إلا العارف بلغة العرب"[٧٩]. ثم تنوسي هذا الفرق الدقيق، أو تقادم العهد به، أو ذهب الذين يعرفونه، أو أن ترجع مفردات كلّ مادة إلى معنى عام تشترك فيه [٨٠].

وإذا كان مذهب المحققين من العلماء يرى أن لا ترادف في العربية، ولا في كتاب الله: كابن الأعرابي (ت ٢٣١ هـ)، وثعلب (ت ٢٩١ هـ)، وابن درستويه (ت ٣٢٧هـ)، وأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ)، والخطابي (ت ٣٨٨ هـ)، وأحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ)، وأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ)، والراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ)، والزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، وابن عطية (ت ٥٤١ هـ)، و القرطبي (ت ٦٧١ هـ)، وابن تيمية (٧٢٨ هـ)، و ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)، والزركشي (ت ٧٩٤ هـ)، و السيوطي (ت ٩١١ هـ).

ومن المعاصرين:

عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في كتابها (الإعجاز البياني للقرآن)، وفضل حسن عباس في كتابه (إعجاز القرآن الكريم) [٨١]، فيقتضي منا أن نحقق وجهة نظرهم هذه، و ننظر في الألفاظ التي قيل بترادفها في القرآن الكريم، ونحللها في سياقها، وبعدئذ نخلص إلى رأي.

من ذلك ما وقفت عليه عائشة عبد الرحمن في (الإعجاز البياني للقرآن):

- الرؤيا والحلم: في سورة يوسف (إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ، قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ).

جاءت (الرُّؤْيَا) سبع مرات في القرآن، و (الأَحْلاَم) ثلاث مرات. فوجدت: أن الرؤيا وردت كلها صادقة، و الأحلام هي أضغاث مهوشة وهواجس مختلفة. وانتهت إلى بيان الفرق بينهما، ولا يترادفان [٨٢].

وهكذا مع:

- آنس و أبصر: لا يسوغ استعمال (آنس) بدلا من (أبصر) لما في آنس من حسن الاستئناس، ليس موجودا في أبصر [٨٣].
- النأي و البعد: فالنأي إعراض وصدّ، والبعد نقيض للقرب، ولا يترادفان [٨٤].
- حلف و أقسم: حلف في موضع الشك والريبة، أما أقسم في الأيمان الصادقة، والفرق بينهما كالفرق بين العام الخاص [٨٥].
- التصدع والتحطم: ليسا مترادفين [٨٦].
- الخشوع والخشية والخضوع والخوف [٨٧]، و زوج و امرآة [٨٨]، وأشتات وشتى [٨٩]، و الإنس والإنسان [٩٠]، والنعمة والنعيم [٩١].

وهكذا تستوفي بنت الشاطئ في استقرائها ما ورد من هذه الألفاظ في القرآن الكريم، ثم تحتكم إلى سياقها في الآيات، وتستقصي كتب اللغة لتوضح الفروق الدقيقة بينها، وتنتهي إلى حكم: أن لا ترادف فيها، ولشدة تحرزها وتحوطها تقول: " وقد ينبغي لي أن أعترف هنا بقصوري عن لمح فروق الدلالة لألفاظ قرآنية تبدو مترادفة فليس لي إلا أن أقرّ بالعجز والجهل" [٩٢].

وهذا موقف رائع بنا حاجة إلى أن نتخذه منهجا، ومفتاحا يعتمد على الفهم الواعي والاحتياط الواجب بإزاء التعبير القرآني لئلا يقع أحدنا في المحذور من غير قصد.

ومثل عائشة عبد الرحمن وقف الباحث محمد عبد الرحمن بن صالح الشايع على:

- الحمد والشكر.
- الريب والشك.
- الحلف والقسم.
- الشرعة والمنهاج.
- الخضوع والخشوع.
- الشح والبخل.
- الكمال والتمام.
- السبيل والطريق.
- الخوف والخشية.
- اليأس والقنوط.
- التلاوة والقراءة.
- هرب، أبق، فرّ.
- القعود والجلوس.
- نعم وبلى.

وقد درسها في الفصل الثالث من كتابه [٩٣]. وسنقف على مبحثه الأول في (الحمد والشكر).

لقد ورد (الحمد) مصدرا في القرآن الكريم اثنتين وأربعين مرةً [٩٤]. وورد (الشكر) ومشتقاته خمسا وسبعين مرةً. وذكر أن المبرد (ت ٢٨٥ هـ)، والطبري (ت ٣١٠ هـ) ذهبا إلى أنهما بمعنى واحد، ويوضع أحدهما موضع

الآخر، قال الطبري: "إن الحمد لله ينطق به في موضع الشكر، وإن الشكر قد يوضع موضع الحمد"[٩٥].

ثم عقّب أن كثيرا من المفسرين لم يوافقوهما الرأي، وخلص إلى أن الحمد أعم من الشكر[٩٦].

وهكذا مع سائر الألفاظ التي عرض لها:

فالشك سبب الارتياب [٩٧]، وينقل رأي بنت الشاطئ في الحلف والقسم[٩٨]، وينقل رأي الراغب الأصفهاني في الشرعة والمنهاج [٩٩]، وينقل رأي بنت الشاطئ في الخضوع والخشوع [١٠٠] ويرى أن الشح أعم من البخل[١٠١]، والتمام أبلغ من الكمال[١٠٢]، والسبيل أغلب وقوعا في الخير من الطريق [١٠٣]، والخشية أعلى مرتبة من الخوف [١٠٤]، واليأس أعم من القنوط[١٠٥]، والتلاوة أخص من القراءة [١٠٦]، وأبق لصيق بالعبودية، والهرب الاختفاء، والفرار الروغان [١٠٧] والقعود عن قيام، والجلوس عن ارتفاع[١٠٨]، ونعم وبلى مختلفان في الدلالة [١٠٩].

ثم ختم ذلك قائلا: "من هذا تظهر أهمية إدراك الفروق بين الألفاظ"[١١٠].

وكذلك وقف أحمد مختار عمر في الفصل الرابع (الترادف وأشباه الترادف في القرآن الكريم) من كتابه: دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته. وعرض مفهوميه للترادف التام، وشبه الترادف، ورأى: "حدوث ترادف في بعض ألفاظ القرآن الكريم... (و) أن ما بين أكثرها من ترادف... إنما يتحقق فيما يمكن أن يسمى بالمعنى الأساسي أو الأولي"[١١١].

ثم عرض في الترادف التام:

١- الفعلان: آثر وفضّل، ص ١٠٣ - ١٠٤.

٢- الفعلان: أرسل وبعث، ص ١٠٤ - ١٠٥.

٣- الكلمات: ذلة واستكانة وذل، ص ١٠٥ - ١٠٦.

٤- الفعلان: يئس وقنط، ص ١٠٦ - ١٠٧.

٥- الكلمات: سكب وصبّ وأفرغ، ص ١٠٧ - ١٠٨.

٦- الفعلان: آتى وأعطى، ص ١٠٨ - ١٠٩.

٧- الأفعال: ائتلى وأقسم وحلف، ص ١٠٩.

٨- الأفعال: أتى وجاء وحضر، ص ١١٠.

٩- الكلمات: سنة وعام وحول، ص ١١٠ - ١١١.

١٠- الفعلان: اقترب ودنا، ص ١١١- ١١٢.

١١- كلمتا: خلف ووراء، ص ١١٢.

١٢- كلمتنا: أسفل وتحت، ص ١١٣.

١٣- كلمتا: غرفة وحجرة، ص ١١٣.

في شبه الترادف ساق ما يأتي:

١- كلمتا: الحلم والرؤيا، ص ١١٣ - ١١٤.

٢- كلمتا: الغيث والمطر، ص ١١٤ - ١١٥.

٣- كلمتا: الهمز واللمز، ص ١١٥ - ١١٦.

٤- كلمتا: الوالدة و الأم، ص ١١٦ - ١١٧.

٥- الفعلان: أكمل وأتم، ص ١١٧.

ونقف على مثال واحد مما عدّه من الترادف التام لنوضح طريقته، وكيف وصل إلى هذا الرأي:

١- الفعلان آثر وفضّل:

ذكر الباحث ثلاث آيات ورد فيها (آثر: ماضيا مرتين، ومضارعا مرة واحدة)، و (فضّل: ماضيا ثلاث مرات)، ثم نقل رأي القرطبي (ت ٦٧١ هـ)، وأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)، وابن منظور (ت ٧١١ هـ) الذي قالوا أن معنى آثر: فضل، من غير أن يكلّف نفسه النظر في سياق الآيات التي ورد فيها الفعلان، فقال: "سنجد المعنيين متساويين لا نكاد نعثر على فرق بينهما"[١١٢]، وحقيقة معنى (آثر) فيه تفرد بحيث يدخل فيه أكثر من واحد، أو أكثر من اختيار، وهذا ما لا ينكره أي متأمل في سياق الآيات التي ورد فيهما الفعلان، وبذلك يبطل ترادفهما.

أما ما قاله في شبه الترادف فقد ذهب إلى أنّ" هذا النوع من الكلمات... مترادفة أو متطابقة... ليست كذلك في الاستخدام القرآني الذي يفرّق بينهما بصورة تمنع التبادل بينهما في السياق الواحد إلا بشيء من التجوز"[١١٣].

وعقد عبد العال سالم مكرم كتابه (الترادف في الحقل القرآني) الذي يرى "أن الترادف سواء أكان في مجال الأسماء أو في مجال الأفعال ظاهرة تفرض نفسها"[١١٤]. ويسلّم الباحث بوقوع الترادف في القرآن الكريم لأمور عدة: اختلاف لغات العرب، وحرية الاختيار بين لفظين متقاربين في المعنى [١١٥]، ويحتجّ لوقوع الترادف في القرآن الكريم أنه نزل بلغات العرب جميعا [١١٦]، ولا أظنه موفقا في هذا. ثم عقد فصول كتابه في الترادف على:

الفصل الثاني: نماذج من الترادف في الأسماء (١٣ نموذجا)، ص ٦٥ - ٩٨.

الفصل الثالث: نماذج من الترادف في الأفعال (٨ نماذج)، ص ١٠١ - ١٤٠.

الفصل الرابع: الترادف والتوكيد (التوكيد اللفظي، والتوكيد المعنوي)، ص١٤٣- ٢٠١.

الفصل الخامس: الترادف والتكرار، ص ٢٠٥ - ٢٣٦.

الفصل السادس: الترادف والعطف، ص ٢٣٩ - ٢٩٥.

وسأقف على مثال واحد مما جاء به لوقوع الترادف ليتضح ما حاول أن يعدّه من الترادف فلم يوفق:

وقف في الفصل الثالث عند الفعلين: (جاء و أتى) وعرض ورودهما في القرآن الكريم (بلا إحصاء) قال عن (جاء): "لم ترد في القرآن الكريم إلا فعلا ماضيا، ولم يرد منها مشتق"[(١١٧)].

وهذا حسن، ثم قال عن (أتى): "تكررت في القرآن الكريم كثيرا، وشغلت مادتها صفحات متعددة من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم من الصفحة الرابعة إلى الصفحة الحادية عشرة [(١١٨)]. ثم قال أخيرا: "وفي ضوء الأمثلة التي سقتها في هاتين المادتين: (جاء و أتى) نستطيع أن نقول: إنّ بينهما التقاءً في بعض المعاني، وافتراقا في البعض الآخر، فإذا كان السياق يقتضي أن يكون أحدهما مثل الآخر في المعنى، قلنا: إنهما مترادفان في هذا المعنى، أما إذا كان السياق يقتضي التفرقة بينهما قلنا: إنهما في هذه الحالة غير مترادفين"[(١١٩)].

لاحظ هنا:

١- التقاء في بعض، افتراقا في بعضها الآخر.

٢- إذا كان السياق يقتضي...

إذنْ قيل قبله، ونقول: هناك فروق دقيقة، والسياق هو الذي يقرر، ولو فحص الباحث مواضع (جاء) ومواضع (أتى) في سياقهما للحظ الفرق الدقيق الذي لا يدركه إلا اللغوي البارع، ولهذا لا نسلّم له بوقوع ترادفه الذي لم يستطع أن يثبته ويفلت من أسار جمهرة الآراء التي قالت بوقوعه لاسيما تأثره بإبراهيم أنيس [(١٢٠)]، أما إذا حاول هو وغيره أن يجعلوا من الترادف حقيقة

لغوية بما يفرضه السياق فأمر متروك للمبدعين ومَنْ بيدهم فن القول وهـذا مـا لا نستطيع دفعه الآن !

وخلاصة القول في الترادف:

١- إن الألفاظ قد تلتقي في معنى عـام، ولكـنّ بينهـا فـروقا دقيقـة، يقتـضيها المقام (مناسبة القول)، والسياق، والجذر اللغوي، والاشتقاق.

٢- قد يضع الشارح أو المفسر كلمة موضع كلمـة مـن بـاب مقاربـة المعنـى، وقد ورد عند المفسرين هذا بكثرة ووضوح.

٣- تنوسيت الفروق اللغوية بين الألفاظ فاستعملها الناس في باب واحد، مـن غير إدراك تلك الفروق، فشاع استعمالها.

٤- قد يتحرك السياق فيمنح الألفاظ مواضع متبادلة، وقد وقع هـذا في الـشعر والنثر الفني من كلام العرب.

٥- لا نقرّ هنا بوقوع الترادف في القرآن الكريم أما شبه الترادف فلا نمنعه مـن باب إيضاح المعاني.

٦- إنّ ما يسمى بـ (الترادف) صورة مـن صـور المـشكل الـذي يـدفعنا علـى البحث في معاني المفردات ومعرفة الفروق الدقيقة بينها، لنـستطيع أن نعـبر بدقة عن المعنى المراد، ونعطي لكلّ مفردة معناها وموضعها من الـسياق. و الله أعلم بمراده.

المبحث الثالث: المشترك اللفظي

ذكره سيبويه (ت نحو ١٨٠ هـ)، فقال: "إعلم أنّ من كلامهم... اتفاق اللفظين والمعنى مختلف، قولك: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت إذا أردتَ وجدان الضالة"[١٢١].

ويبدو لي من عبارة سيبويه ـ رحمه الله ـ أنه نظر إلى المفردة (وجد) خارج السياق، وإلاّ فالعبارتان واضحتان: وجدتُ عليه، ووجدتُ الضالّة. ومن هنا انطلق القدماء والمعاصرون يبنون على وهمٍ ظاهر، وجعلوا منه موضعا ألّفوا فيه، وصار قضية لغوية امتدّ أثرها إلى القرآن الكريم، وهذا ما نحاول إيضاحه، وبيان الموقف منه.

تناوله القدماء في عنوانين مختلفين فوصل إلينا منهما:

أ - (ما اتفق لفظه، واختلف معناه):

١- لأبي العميثل عبد الله بن خليد الأعرابي (ت ٢٤٠ هـ)، حققه ونشره المستشرق فريتس كرنكو مع مقدمة بالألمانية، في لندن سنة ١٩٢٥م، وأعاد تحقيقه محمد عبد القادر عطا، في القاهرة سنة ١٩٨٨م.

٢- لأبي الحسن علي بن الحسن الهنائي (كراع النمل ت ٢٧٥ هـ) حققه أحمد مختار عمر، وضاحي عبد الباقي وطبع مرتين: الأولى عالم الكتب / القاهرة، سمة ١٩٧٦، والثانية سنة ١٩٨٨م.

٣- لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥ هـ)، حققه عبد العزيز الميمني، وطبع في القاهرة، سنة ١٣٥٠هـ.

٤- لأبي عبد الغني تقي الدين سليمان بن بنين الدقيقي (ت ٦١٤ هـ)، بعنوان: (اتفاق المباني وافتراق المعاني) حققه يحيى عبد الرؤوف جبر، دار عمّار / الأردن، سنة ١٩٨٥م.

ب – الوجوه والنظائر:

وقد ألف في هذا جمهرة كبيرة من العلماء وصل إلينا منها:

١- لأبي الحسن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ)، حققه عبد الله محمود شحاتة، الهيئة المصرية للكتاب/ القاهرة، سنة ١٩٧٥م.

٢- لهارون بن موسى القارئ الأعور (ت ١٧٠ هـ)، حققه حاتم صالح الضامن، طبعة وزارة الثقافة والإعلام / بغداد.

٣- لأبي زكرياء يحيى بن سلام التيمي (ت ٢٠٠هـ)، بعنوان: (التصاريف، تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه) حققته هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع / تونس، سنة ١٩٨٠م.

٤- لأبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن (الحكيم الترمذي ت ٣٢٠ هـ)، بعنوان: (تحصيل نظائر القرآن) حققه حسني نصر زيدان، طبعة القاهرة عام ١٩٧٠م.

٥- لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ): بعنوان (أفراد كلمات القرآن)، حققه أحمد خان ونشر في موضعين:

- مجلة الدراسات الإسلامية / إسلام أباد، سنة ١٩٨٣م.
- مجلة المورد العراقية، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، سنة ١٩٨٤ م.

٦- لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ)، حققه محمد المصري، طبعة دار الفكر / دمشق، سنة ١٩٨٤ م.

٧- لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني (ت ٤٧٨ هـ) حقق مرتين:

- الأولى: حققه عبد العزيز سيد الأهل، بعنوان (قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم)، دار العلم للملايين / بيروت، سنة ١٩٧٠ م.

- الأخرى: حققه محمد حسن أبو العزم الزفيتي، طبعة وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث / القاهرة، سنة ١٩٩٢م.

٨- لأبي البركات الأنباري (ت ٥٧٧ هـ)، طبعة القسطنطينية، عام ١٣٠٢ هـ.

٩- لأبي الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، بعنوان: (نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر)، حقق مرتين:

- الأولى: تحقيق مهر النساء - أيم - أي، طبعة وزارة المعرف الهندية / حيدر أباد - الهند، سنة ١٩٧٤م

- الأخرى: تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، طبعة مؤسسة الرسالة / بيروت، سنة ١٩٨٤ م. والآخر له بعنوان: (منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر)، تحقيق محمد السيد الصفطاوي وفؤاد عبد المنعم أحمد، منشأة المعارف / الإسكندرية، سنة ١٩٧٩ م.

١٠- لشمس الدين محمد بن محمد البلبيسي (ت ٨٨٧ هـ)، حققه فؤاد عبد المنعم أحمد، منشأة المعارف / الإسكندرية، سنة ١٩٧٧ م.

وغير هذا:

- للفيروزأبادي (ت ٨١٧ هـ): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، حققه محمد علي النجار، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٩م.
- وللسيوطي (ت ٩١١هـ): معترك الأقران في إعجاز القرآن، حققه علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي / القاهرة، سنة ١٩٦٩ م - ١٩٧٣م.

هذا فضلا عما تناولته كتب علوم القرآن [١٢٢].

وللمعاصرين جهود كثيرة: بحوثا ومؤلفات منها:

١- الاشتراك والترادف: لمحمد تقي الدين - بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد الثاني عشر، سنة ١٩٦٥م.

٢- المشترك اللفظي: لعبد الكريم شديد محمد النعيمي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب / بغداد، سنة ١٩٧٣م.

٣- المشترك اللغوي نظرية وتطبيقا: لتوفيق محمد شاهين، مطبعة الدعوة الإسلامية / القاهرة، سنة ١٩٨٠م.

٤- معجم الألفاظ المشتركة في اللغة العربية، عبد الحليم محمد قنبس - مكتبة لبنان / بيروت، د. ط، سنة ١٩٨٧م.

٥- المشترك اللفظي في ضوء غريب القرآن الكريم، لعبد العال سالم مكرم، مطبعة جامعة الكويت، سنة ١٩٩٤م.

٦- المشترك ودلالته على الأحكام، لحسين مطاوع الترتوري، مطبوعات كلية الشريعة / جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، سنة ١٤٠٠هـ.

٧- المشترك اللفظي في الحقل القرآني، عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١، سنة ١٩٩٦م.

٨- الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، لمحمد نور الدين المنجد، دار الفكر / دمشق - بيروت، سنة ١٩٩٩م.

وغير هذا في كتب فقه اللغة [١٢٣].

وقد نقل الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) رأيا يقول: "وقد جعل بعضهم ذلك (أي المشترك اللفظي) من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجها أو أكثر أو أقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر" [١٢٤]. وترجح أصحاب الوجوه والنظائر في بيان مفردة (المشترك اللفظي) بين وجهين وعشرين وجها [١٢٥].

ولو تأملنا ما ذكرته كتب (المشترك اللفظي) و (الوجوه والنظائر) لوجدنا أن الوجوه التي ذكرت للفظ الواحد إنما يحددها "السياق الذي تقع فيه" [١٢٦].

وهذا ما عناه عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) قبله "أن اللفظ تبع للمعنى في النظم" [١٢٧]. ونحن نتفق مع من لخص موقف القدماء والمعاصرين، رمضان عبد التواب فقال: "المشترك اللفظي لا وجود له في واقع الأمر" [١٢٨]، وحسن ظاظا الذي سمّاه بـ (الاشتراك الكاذب) [١٢٩]، وهو يرى أن "لا من اشتراك حقيقي" [١٣٠]، وهذا فضلا عما توصل إليه الباحث محمد نور الدين المنجد في أحدث دراسة عن الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم الذي لخص موقفه فقال: "يتبين لنا في هذا الباب أن ما ذكرته كتب الوجوه والنظائر على أنه من المشترك اللفظي في القرآن الكريم لم يكن حقيقة من الاشتراك في شيء، وأن دعوى الاشتراك فيما ذكرته هذه المصنفات من وجوه ونظائر تسقط عند التمحيص والتحقيق" [١٣١].

ونسوق هنا مثالين مما عُدَّ مشتركا في القرآن الكريم:

المثال الأول: مما فُسّر على وجهين: كلمة (أَوْلَى).

"تفسير (أَوْلَى) على وجهين: الوعيد والحق. فوجه منها أولى: الوعيد، قوله سبحانه في سورة محمد - صلى الله عليه وسلم -: (فَأَوْلَى لَهُمْ)، وعيد من عذاب الله، مثلها في سورة القيامة: (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) أي وعيد لك يا أبا جهل على وعيد.

والوجه الثاني: أولى يعني: أحقّ، قوله عزّ وجلّ في سورة الأحزاب (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ) يعني: أحق بحفظ أولاد المؤمنين (مِنْ أَنفُسِهِمْ) بعد موته، وكقوله تعالى: (وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ)، وكقوله تعالى: (أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا) أي أحق بها بدخول النار [١٣٢].

ولنا على هذين الوجهين ما يأتي:

١- استعمال (أَوْلَى) للوعيد مع اللام (أولى + اللام)، و(أَوْلَى) أحقّ مع الباء (أولى + الباء)

٢- السياق أيضاً ومناسبة القول (سبب النزول) لاحظ: أبا جهل !

٣- يتضح مما تقدم أن لا اشتراك !

المثال الثاني: مما فُسّر على عشرين وجها: كلمة (الإِنسَان).

"تفسير (الإِنسَان) على عشرين وجها [١٣٣].

الأول: آدم عليه السلام. قال تعالى:

- في سورة الإنسان الآية (١): (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ).
- في سورة المؤمنون، الآية (١٢): (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ).
- في سورة الرحمن، الآية (١٤): (خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ).

الثاني: أولاد آدم. قال تعالى:

- في سورة ق الآية (١٦): (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ).
- في سورة الإنسان الآية (٢): (إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ).

ونحوه كثير: الآية (٢٨) من سورة النساء، وسورة يوسف الآية (٥)، وسورة الحجر الآية (٢٦)، وسورة النحل الآية (٤)، وسورة الإسراء الآيات (١٣ - ٥٣ - ٦٧ - ١٠٠)، وسورة الكهف الآية (٥٤)، وسورة مريم الآية (٦٦)، وسورة الأنبياء الآية (٦٧)، وغيرها...

الثالث: هشام بن المغيرة أو الوليد بن المغيرة. قال تعالى:

- في سورة التين الآية (٤): (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ).
- في سورة الزمر في الآيتين (٨ - ٤٩): (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ).
- في سورة يونس الآية (١٢): (وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ).

الرابع: قرط بن عبد الله بن عمرو، أبو حباب. قال تعالى:

- في سورة العاديات الآية (٦): (إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ).

الخامس: أبو جهل بن هشام. قال تعالى:

- في سورة العلق الآية (٦): (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى).

السادس: النضر بن الحارث. قال تعالى:

- في سورة الإسراء الآية (١١): (وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ).

السابع: برصيصاء العابد. قال تعالى:

- في سورة الحشر الآية (١٦): (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ).

الثامن: بديل بن ورقاء. قال تعالى:

- في سورة الزخرف الآية (١٥): (إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ).

التاسع: أخنس بن شريق. قال تعالى:

- في سورة المعارج الآية (١٩): (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا).

العاشر: أبي بن خلف وقيل أسيد بن خلف. قال تعالى:

- في سورة الإنفطار الآية (٦): (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ).

الحادي عشر: كلدة بن أسيد. قال تعالى:

- في سورة البلد الآية (٤): (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ).

الثاني عشر: عقبة بن أبي معيط. قال تعالى:

- في سورة الفرقان الآية (٢٩): (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً).

الثالث عشر: أبو طالب. قال تعالى:

- في سورة الطارق الآية (٥): (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ).

الرابع عشر: عتبة بن أبي لهب. قال تعالى:

- في سورة عبس الآية (١٧): (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ).
- في سورة عبس الآية (٢٤): (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ).

الخامس عشر: عدي بن ربيعة. قال تعالى:

- في سورة القيامة الآية (٣): (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ).

السادس عشر: سعد بن أبي وقاص. قال تعالى:

- في سورة لقمان الآية (١٤): (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ).

السابع عشر: عبد الرحمن بن أبي بكر. قال تعالى:

- في سورة الأحقاف الآية (١٥): (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا).

الثامن عشر: عتبة بن ربيعة. قال تعالى:

- في سورة الإسراء الآية (٨٣): (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ).
- في سورة هود الآية (٩): (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً).

التاسع عشر: أبي بن خلف الجمحي. قال تعالى:

- في سورة مريم الآية (٦٧): (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا).
- في سورة يس الآية (٧٧): (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ).

العشرون: النبي صلى الله عليه وسلم. قال تعالى:

- في سورة الإنشقاق الآية (٦): (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ).

لعلّ المتأمل في توجيه لفظة (الإنسان) يدرك بوضوح أن سبب النزول[١٣٤] هو الذي منح هذا التحديد في الأعلام الذي ورد ذكرهم فيه، وهذا لا يكون

إلا بمعرفته بالرواية بالمأثور وليس هناك قرينة أخرى تحدد هذه الوجوه التي عدّها أصحاب الوجوه والنظائر عشرين وجها.

فالإنسان في القرآن الكريم كله سواء أكان آدم عليه السلام أم فلانا أم مطلق المخلوق من هذا الجنس هو الإنسان وقد حددت أسباب النزول هذا الشخص، وليس هذا من المشترك اللفظي، فالكلمة يظهر معناها ويتحدد على وفق قرائن التعليق التي ذكرها عبد القاهر الجرجاني [١٣٥]، والتي فصل بها القول تمام حسان ووزعها إلى قرائن معنوية وقرائن لفظية [١٣٦]، وقد أدى كثير من الألفاظ التي قد تؤدي أكثر من معنى في سياقها ومناسبتها ومجازها إلى ظهور (التورية) و(الملاحن) التي خصها ابن دريد (ت ٣٢١ هـ) بكتاب حقق مرتين [١٣٧].

وخلاصة القول في المشترك اللفظي:

١- إنّ تعدد المعنى للمفردة الواحدة خاضع للسياق، وقرائن التعليق، ومناسبة القول، والمجاز.

٢- لم يثبت عند الباحثين أي مشترك لغوي فقد نظروا في الألفاظ نظرة تدقيق وفحص.

٣- غياب النظرة إلى السياق ومكوناته وتحليل عناصره.

٤- لا اشتراك لفظي في القرآن الكريم.

و الله أعلم بمراده.

المبحث الرابع: المعرّب

تتميز العربية من غيرها من اللغات الأخرى بغنائها في قوانين اشتقاقها، وصيغها، مما سهّل لها أن تستوعب ما ليس من أصواتها، وأبنيتها من مفردات ليست منها، وقد ذكر سيبويه (ت نحو ١٨٠هـ) ذلك فقال: "اعلم أنهم مما يغيّرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة، فربما ألحقوه ببناء كلامهم، وربما لم يلحقوه"[١٣٨].

و(المُعرّب) صورة أخرى من صور المشكل الذي نعرض له بالبحث فقد انقسم العلماء في وقوعه في القرآن الكريم على ثلاثةٍ:

الأول: فريق ينكر وقوعه مطلقا، وسنده في ذلك أنَّ القرآن الكريم نزل (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ. سورة الشعراء الآية / ١٩٥). وقال بهذا جمهرة من القدماء[١٣٩]:

مجاهد بن جبير (ت ١٠٣ هـ)، وعكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٧ هـ)، والشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، وأبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ)، والباقلاني (ت ٤٠٣ هـ)، والطبري (ت ٣١٠ هـ)، وابن الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) [١٤٠]، وأحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ).

ومن المعاصرين: الشيخ أحمد محمد شاكر [١٤١]، والدكتور عبد العال سالم مكرم [١٤٢].

الثاني: يرى وقوع (المُعرّب) في القرآن الكريم [١٤٣]، وقال بهذا جمهرة من القدماء:

أبو ميسرة (عمرو بن شرحبيل الهمداني الكوفي، ت نحو ٦٢ هـ)، وعبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ)، وسعيد بن جبير (قتله الحجاج سنة ٩٥ هـ)، والضحاك بن مزاحم (ت ١٠٥ هـ)، وابن جنّي (ت ٣٩٢ هـ)، والجويني (٤٧٨ هـ)، وابن النقيب (ت ٦٩٨ هـ)، والسيوطي (ت ٩١١ هـ).

ومن المعاصرين: صبحي الصالح [١٤٤]، ورمضان عبد التواب [١٤٥]، وحسن ظاظا [١٤٦]، ومحمد السيد علي بلاسي [١٤٧].

الثالث: يقف موقفا وسطا بين الفريقين [١٤٨]، وينتهي إلى أن (المُعرّب) سار على وفق سنن العربية صوتا ووزنا ليقول بعربية هذه الألفاظ التي وقعت في القرآن الكريم، وصاحب هذا الرأي المتوازن أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤)، وذهب معه الجواليقي (ت ٥٤٠ هـ)، وابن الجوزي (٥٩٧ هـ).

ومن المعاصرين: عبد القادر المغربي [١٤٩]، والشيخ أحمد الخليلي (مفتي سلطنة عمان)*.

ولعلّ مقولة أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) "والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعا، وذلك أنّ هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب فعرّبتها بألسنتها، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية، فهو صادق، ومن قال: أعجمية صادق[١٥٠].

منطلق صالح يدفع إلى البحث في هذه الألفاظ على الرغم من تقادم العهد بها، وعدم معرفة الأوائل باللغات الأخرى، وقد قام جهد مشكور في بيان جذور تلك الألفاظ، ومن ذلك:

- المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: لأبي منصور الجواليقي (ت ٥٤٠ هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب / القاهرة، ط ١، سنة ١٣٦١هـ.
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل: للشهاب الخفاجي (ت١٠٦٩هـ)، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، المطبعة المنيرية / القاهرة، ط١، سنة ١٣٧١ هـ.
- المهذب فيما وقع في القرآن من المعرّب: للسيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق إبراهيم أبو سكين، مطبعة الأمانة/ القاهرة، ط١، سنة ١٤٠٠هـ. وهناك كتاب للسيوطي بعنوان (المتوكلي) محقق مطبوع، ولم تقع نسخة له الآن عندي.
- الألفاظ الفارسية المعرّبة: للمستشرق إدي شير، المطبعة الكاثوليكية/ بيروت، سنة ١٩٠٨م.
- تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفها: للقس طوبيا العنيسي، نشره يوسف توما البستاني، ط ٢، سنة ١٩٣٢م، وطبعة أخرى في دار العرب للبستاني سنة ١٩٦٤م.
- من تراثنا اللغوي القديم: ما يسمى في العربية بالدخيل: لطه باقر، طبعة المجمع العلمي العراقي / بغداد، ط١، سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م.
- أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج: مسعود بوبو، مؤسسة النوري / دمشق، ط ٢، سنة ١٩٩٣ م. [١٥١]

استعمل أهل اللغة، والباحثون مصطلحات عدة لكل لفظ غير عربي: (الدخيل)، و (الأعجمي)، و (المعرّب)، فتداخلت دلالاتها، على الرغم من أن بينها فروقا، وكفانا مؤونةَ الخوضِ في تفاصيل ذلك العلاّمة مسعود بوبو ـ رحمه الله ـ، ثمّ ساد مصطلح (المعرّب) بعدئذ.

ومن الدراسات الجادة التي تناولت (المعرّب) في القرآن الكريم ما قام بها الباحث محمد السيد علي بلاسي، إذ وقف على (١٦٣) لفظة معرّبة وقعت في القرآن الكريم [١٥٢]، بعد أن قال: "إنني توصلت ـ بحمد الله ـ إلى نتيجة أستطيع من خلالها أن أجزم بوقوع المعرّب في القرآن الكريم" [١٥٣]، ثم سرد هذه الألفاظ على وفق تسلسلها الهجائي وهي:

أبّاً، وإبراهيم، وإبلعي، و إبليس، وأباريق، وأخلد، والأرائك، وآزر، وأسباط، وإستبرق، و إسحاق، وإسرائيل، وأسفارا، وإسماعيل، وإصري، وأكواب، وإلّاً، وأيم، والإنجيل، وإناه، والأولى، والآخرة، وأوّبي، وأوّاب، وأواه، وآن، وآنية، وأيّوب، وبخس، وبطائنها، وبعير، وبِيَع، وتتبيرا، وتحتها، وتنّور، والتوراة، والجبت، وجبريل، وجهنم، وجالوت، وحرام، وحصب، وحطّة، وحُوبا، والحواريون، ودرّي، ودرست، ودراهم، وداود، ودينار، وربانيون، وربيون، والرحمن، والرسّ، والرقيم، ورمزا، ورهوا، والروم، وراعنا، وزكريا، وزمهريرا، والزنجبيل، وسجّدا، وسجّين، والسجلّ، وسربال، وسراجا، وسرادق، وسريّا، وسَفَرة، وسقر، وسكرا، وسلسبيل، وسليمان، وسندس، وسنا، وسينين، وسيّدها، وشطر، وشهر، وشيطان، وصرهنّ، وصراط، وصلوات، وطفقا، وطه، وطوبى، والطور، وطوى، والطاغوت، وطالوت، وعبدت، وعدن، والعرم، وعزيز، وعيسى، وغساقا، وغيض، والفردوس، وفرعون، وفوم، والفيل، وقراطيس، وقسيس، والقسط، والقسطاس، وقسورة، وقسيّة، وقطنا، وقطمير، وقُفل، والقمّل، وقنطار، والقيّوم، وكفّر، وكفلين، وكنز، وكوّرت، وكافور، ولوط، ولينة، وماروت، ومتكأ، ومجوس، ومدين، والمرجان، ومرقوم، ومريم، ومزجاة، ومسك، ومشكاة، ومقاليد، وملكوت، ومنسأته، ومنفطر، ومناص، والمهل، وموسى، ومائدة، وميكائيل، ونون، ونوح، وناشئة، وهدنا، وهون، وهاروت، وهارون،

ومـاروت، وهيـت لـك، ووردة، ووراء، ووزر، ويحـور، ويـس، واليـسع، ويصدّون، ويصهر، ويعقوب، ويونس، وياقوت، واليمّ، واليهود، ويوسف.

وسنختار مفردة من هذا كلّه ونتابع ما قيل فيها، لنقرر بعدئـذ: هـل وقـع المعرّب في القرآن الكريم ؟ وكيف نتعامل معه ؟

وردت لفظة (إِسْتَبْرَق) أربع مرات في القرآن الكريم كالآتي:

- في سورة الكهف الآية (٣١): (أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا).
- في سورة الدخان الآية (٥٣): (يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ).
- في سورة الرحمن الآية (٥٤): (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ).
- في سورة الإنسان الآية (٢١): (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا).

وفي القراءة:

قـرأ ابن محيصن (أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمـن بن محيصن المكـيّ، ت ١٢٣ هـ):"(إِستَبْرَقَ) [١٥٤] بـالفتح على أنـه ممنـوع مـن الصـرف، وعللـه أهـل التفسير على وجهين [١٥٥]:

الأول: أن اللفظة أعجمية !

الثاني: أن اللفظة فعل !

ثم قال عنها أصحاب المعاني وأهل التفسير:

١- إنّ معناها: غليظ الديباج، وصفيقه [١٥٦].

٢- إن أصل المفردة:

- فارسي: استبر [١٥٧]، أو استبره [١٥٨]، أو استفره [١٥٩]، أو إستروه [١٦٠]، أو استقره [١٦١]
- رومي: استبره [١٦٢].
- سرياني: استفره [١٦٣].
- وقيل: إنها فعل ماضٍ مشتق من البرق [١٦٤]، أو البراقة [١٦٥]، أو البريق[١٦٦].
- وقيل: إنه جمع إستبرقة [١٦٧].

ولنا ملاحظ على ما قيل:

١- يوضح هذا الخلط عدم معرفة القدماء باللغات ليقرروا الأصل وصورته، وطريقة إجرائه على قوانين العربية: صوتا، ووزنا، وربما كانت اللفظة مشتركة بين اللغات الأخرى باللفظ والمعنى (ولاسيما بين ما يسمى باللغات السامية) أو (الجزرية) أو (العائلات اللغوية).

٢- قدم دخول المفردة، وتأخر التدوين، مما تباين اللغويون والمفسرون في معرفة أصل المفردة، ومن أين جاءت، وكيف دخلت، وكيف جرى استعمالها، وقدرة اللغة العربية في هضم المفردات الدخيلة عليها [١٦٨].

٣- لفظة (إِسْتَبْرَق) فارسية الأصل على ما أثبته المستشرق برجشتراسر[١٦٩]، والمستشرق أدّي شير [١٧٠]، ومحمد التونجي [١٧١]، فضلا عن القدماء الذين مرّ ذكرهم آنفا.

٤- إن عملية الاقتراض اللغوي مظهر إنساني عام.

ونخلص هنا إلى أن المجتمع الإنساني جرى العرف فيه على التقارب والتداخل وجاء الإسلام ليؤكد غايته بقوله تعالى في سورة الحجرات الآية (١٣): (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ).

ومن هنا نقرر وقوع المعرّب على وفق ما اتخذته العربية من وسائل ليجري اللفظ فيها على سننها وقوانينها، وليس في الأمر غرابة، ولا جرأة على القرآن الكريم الذي شرّف العربية التي صلحت أن تكون بيانه إلى الناس كافة.

ولعلّ مقولة ابن النقيب (ت ٦٩٨ هـ) في باب المُعرّب: "لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذا اللفظ ويأتوا بلفظ يقوم مقامه في الفصاحة لعجزوا"[١٧٢]. ما يوضح سرّ إعجاز المفردة القرآنية، ويدلل على ما ذهبنا إليه في أن (المعرّب) من (المشكل) الذي يفسّر الوجه البياني المعجز. والله أعلم بمراده.

خاتمة المبحث

لا بدَّ لنا من الإشارة إلى جهود مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مجموعة القرارات التي أصدرها بعد بحث دقيق واستقصاء واف وردت في بحوث ومذكرات ومناقشات توصل منها إلى موقف لغوي معتدل في:

- المترادف: فأوصى إلى "يعنى كلّ العناية بتبيان الفروق الدلالية بين الكلمات ما أمكن، بحيث يتحدد المعنى الخاص الدقيق لكلّ كلمة، وبذلك تضيق دائرة المترادفات"[١٧٣].
- المتضاد والمشترك: "إنّ ما ثبت من كلمات التضاد والمشترك اللفظي ليست كثيرة، ويعوّل في تحديد معناها على السياق والقرينة، ووجودها في المعجم قد يحتاج إليه في فهم النصوص القديمة، وليس فيها عبء على اللغة، وليست العربية بدعا في ذلك. ومهمة واضعي المعجم أن يتحروا استعمال هذه الألفاظ في النصوص الصحيحة قبل الحكم بأنها من الأضداد أو المشترك اللفظي"[١٧٤].

- المعرّب: "من حيث المبدأ، لا مانع من التعريب... عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم... وصحّ صوغه العربي، وساغ في الذوق، وشاع استعماله في الكتابة والتأليف بوجه عام"[١٧٥].

وبهذا نكون قد وصلنا إلى أعدل الآراء في الظواهر اللغوية المطروحة بحثا.

الهوامش

١- محمد بن إدريس الشافعي (ت ١٥٠هـ): الرسالة - تحقيق محمد سيد كيلاني، ط١، سنة ١٣٨٨ هـ، صـ ٢٧.

٢- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل ابن الأزرق - دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف / مصر، ط٢، سنة ١٩٨٤، صـ ٢١٠.

٣- محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٧ هـ): كتاب الأضداد - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، سنة ١٩٨٦، صـ ١.

٤- ينظر رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، ط٢، سنة ١٩٧٣م، صـ ٣٥٥-٣٥٦.

٥- ينظر حسن ظاظا: كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار النهضة العربية / بيروت، سنة ١٩٧٦م، صـ ١١٦.

٦- الكتاب - تحقيق عبد السلام هارون، ١ / ٢٤.

٧- كتاب العين - تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال/ بيروت، باب العين والشين والباء معهما، ١ / ٢٦٣.

٨- الأضداد في اللغة - مطبعة المعارف / بغداد، سنة ١٩٧٤م، صـ ١١٦.

وينظر للمؤلف نفسه: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، دار ومكتبة الحياة/ بيروت، ط١، سنة ١٩٨٠م، ص ٤٢١.

٩- ينظر الأضداد في اللغة من صـ ١١٦ حتى صـ ٢٤٢.

١٠- ينظر صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين/ بيروت، ط١، سنة ١٩٦٠م، ص ٣١٠.

١١- ينظر مقدمة المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم: كتاب الأضداد للأنباري، صـ (ز).

١٢- هناك كتابان في الأضداد للتوزي (ت ٢٣٠ هـ)، والناشئ (ت ٣٦٦هـ)، بحوزتي في العراق حققهما الدكتور محمد حسين آل ياسين، ولكني لا أملك معلومات مكتبية عنهما الآن.

١٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن- تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر/ بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م، ٩/ ٥٨٩٢.

١٤- ينظر أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم: معجم القراءات القرآنية، مع مقدمة في القراءات وأشهر القرّاء، عالم الكتب/ القاهرة، ط٣، سنة ١٩٩٧م، ٣ / ١٩٦ - ١٩٧.

١٥- معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار، دار السرور، د. ت، ٢ / ١٧٦.

١٦- مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط٢، سنة ١٩٨٤م، ٢ / ١٦.

١٧- غريب القرآن وتفسيره، تحقيق محمد سليم الحاج، عالم الكتب/ القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٥م، صـ ٢٤٤.

١٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٩ / ٥٨٩٢ - ٥٨٩٤.

١٩- كتاب الأضداد، ص ٩٥ - ٩٦.

٢٠- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي ناصف، وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، طبعة وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء كتب السنة / القاهرة، ط٢، سنة ١٩٩٩م، ٢/ ٤٧ - ٤٨.

٢١- التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب العاملي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، سنة ١٩٦٢، ٧ / ١٦٥ - ١٦٦.

٢٢- المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد خليل عيتاني، دار المعرفة / بيروت، ط٣، سنة ٢٠٠١م، صـ ١٥٩.

٢٣- معالم التنزيل (مطبوع مع تفسير الخازن)، دار الكتب العلمية / بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥، ٤ /٢٤٦ - ٢٤٧.

٢٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، سنة ١٩٩٨م،٤ / ٧٣.

٢٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م، ٤ / ٤٠.

٢٦- مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، والسيد فضل الله اليزدي الطبطبائي، دار المعرفة / بيروت، ط١، سنة ١٩٨٦م.

٢٧- زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي / بيروت، ط٤، سنة ١٩٨٧م،٥ / ٢٧٥- ٢٧٦.

٢٨- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٧م، ٨ / ٢١ - ٢٢.

٢٩- إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٧٩م، ٢/ ١٢٠.

٣٠- الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، سنة ١٩٩٣م،١١/ ١٢٣.

٣١- تفسير الخازن، دار الكتب العلمية / بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥م، ٤ / ٢٤٦.

٣٢- البحر المحيط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٣م، ٦ / ٢٣٢.

٣٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية / بيروت،ط١، سنة ١٩٩٩م، ٢/ ٤٤.

٣٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي / بيروت، ط٤، سنة ١٩٩٤م، ٦ / ٨.

٣٥- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، راجعه: هشام البخاري وخضر عكاري، المكتبة العصرية / بيروت، سنة ١٩٩٧م، ٣ / ٤٤٦ - ٤٤٧.

٣٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٤م، ٨ / ٤٨٦ - ٤٨٧.

٣٧- التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي / القاهرة، سنة ١٩٧٠م، ٤ / ٧٨٦.

٣٨- كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال / بيروت، باب العين والسين، وتحقيق هادي حسن حمودي ٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠، وطبعة دار إحياء التراث العربي / بيروت، ص ٦٣٢ - ٦٣٣.

٣٩- مختصر كتاب العين، تحقيق هادي حسن حمودي، سلطنة عمان - وزارة التراث القومي والثقافة، ط١، سنة ١٩٩٨، ١ / ٨٠.

٤٠- معاني القرآن، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، وعلي النجدي ناصف، دار السرور، د. ت، ٣ / ٢٤٢.

٤١- مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي/ القاهرة، ط٢، سنة ١٩٨٤م، ٢ / ٢٨٧.

٤٢- غريب القرآن وتفسيره، تحقيق محمد سليم الحاج، عالم الكتب/ القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٥م، صـ ٤١٧.

٤٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن- تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر/ بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م، ١٥ / ٨٥٩٨.

٤٤- معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث / القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٤م، ٥ / ٢٩٢.

٤٥- كتاب الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، سنة ١٩٨٦، صـ ٣٢.

٤٦- إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، مطبعة العاني / بغداد، ط١، سنة ١٩٧٩م، ٣ / ٦٣٨.

٤٧- التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب العاملي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، د. ت، ٧ / ١٦٥ - ١٦٦.

٤٨- المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد خليل عيتاني، دار المعرفة / بيروت، ط٣، سنة ٢٠٠١م، صـ ٣٣٧.

٤٩- معالم التنزيل، دار الكتب العلمية / بيروت، ط١،سنة ١٩٩٥، منشور مع تفسير (الخازن)، ٦ / ٣٧٥.

٥٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، سنة ١٩٩٨م،٦/ ٣٢٥.

٥١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م، ٥ / ٤٤٤.

٥٢- مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، و فضل الله اليزدي الطبطبائي، دار المعرفة / بيروت، ط١، سنة ١٩٨٦م، ١٠ / ٦٧٧.

٥٣- زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي / بيروت، ط٤، سنة ١٩٨٧م، ٩ / ٤٢ - ٤٣.

٥٤- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٧م، ١١ / ٦٨.

٥٥- الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، سنة ١٩٩٣م،١٩/ ١٥٥.

٥٦- تفسير النسفي، دار إحياء التراث العربي/ فيصل عيسى البابي الحلبي، د. ط، د. ت، ٤ / ٣٣٦.

٥٧- تفسير الخازن، دار الكتب العلمية / بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥م، ٦ / ٣٧٥.

٥٨- البحر المحيط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٣م، ٨ / ٤٣٠.

٥٩- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية / بيروت،ط١، سنة ١٩٩٩م،٢/ ٥٧٣.

٦٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، مطبعة الأنوار المحمدية / القاهرة، د. ط، سنة ١٩٩٠م، ٦ / ٣٥٧.

٦١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي / بيروت، ط٤، سنة ١٩٩٤م، ٩ / ١١٨.

٦٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق هشام البخاري وخضر عكاري، المكتبة العصرية / بيروت، د. ط، سنة ١٩٩٧م، ٥ / ٤٨٩.

٦٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٤م، ١٥ / ٢٦٢.

٦٤- التحرير والتنوير - دار سحنون للنشر والتوزيع / تونس، د. ط، سنة ١٩٩٧م، ١٥ / ١٥٤.

٦٥- التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي / مصر، د. ط، سنة ١٩٧٠م،٨/ ١٤٧٢.

٦٦- التفسير الكاشف، دار العلم للملايين / بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٠م، ٧ / ٥٢٦.

٦٧- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر / دمشق - بيروت، ط١، سنة ١٩٩١م، ٣٠ / ٨٨ - ٨٩.

٦٨- الجواليقي: شرح أدب الكاتب، نشر مصطفى صادق الرافعي، القاهرة، سنة ١٣٥٠ هـ، ص ٢٥١.

٦٩- الكتاب - طبعة عبد السلام هارون، ١ / ٢٤.

٧٠- ينظر أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء التراث العربي/ فيصل عيسى البابي الحلبي، سنة ١٩٧٧ م، ص ٢١.

٧١- ينظر أبو منصور الثعالبي: فقه اللغة وسرّ العربية، تحقيق فائز محمد، وإميل يعقوب، دار الكتاب العربي / بيروت، ط٤، سنة ١٩٩٩م، ص ٢٧٨.

٧٢- ينظر أحمد بن فارس: الصاحبي،صـ٤٣. وينظر السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية / صيدا - بيروت، د. ط، سنة ١٩٩٢، ١ / ٤٠٥.

٧٣- منهم أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ)، وما قاله ردا على ابن خالويه في مجلس سيف الدولة، ينظر السيوطي: المزهر ١ / ٤٠٥.

٧٤- ينظر الفروق اللغوية، القاهرة، سنة ١٩٥٣ م، ص ٤٢.

٧٥- ينظر نفسه ص ٢٢٢.

٧٦- ينظر السيوطي: المزهر ١ / ٤٠٧.

٧٧- ينظر:

- رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي / القاهرة، ط٥، سنة ١٩٩٧م، الفصل الثالث ص ٣٠٨ - ٣٢٤.
- صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين / بيروت، ط ١٣، سنة ١٩٩٧ م، الفصل السابع، ص ٢٩٥ - ٣٠١.
- محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، دار ومكتبة الحياة / بيروت، ط١، سنة ١٩٨٠م، ص ٤١٤ - ٤١٦.
- حسن ظاظا: كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار النهضة العربية / بيروت، د. ت، صـ ١٠٢ - ١٠٧.

٧٨- أبو بكر ابن الأنباري:كتاب الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، سنة ١٩٨٦، ص٧.

٧٩- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل ابن الأزرق- دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف / مصر، ط٢، سنة ١٩٨٤، ص ٢١٣.

٨٠- ينظر أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، عني به: محمد عوض مرعب، وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط ١، سنة ٢٠٠١م، المقدمة ٢٠- ٢١، وينظر الكرماني (ت نحو ٥٠٥ هـ): أسرار التكرار في القرآن الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة / القاهرة، سنة ١٩٧٧م، ص ١٧٤، و ص١٩١.

٨١- ينظر إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان / عمّان، ط٣، سنة ١٩٩٩م، ص ١٧١.

٨٢- ينظر الإعجاز البياني للقرآن ص ٢١٥.

٨٣- ينظر نفسه ص ٢١٧ - ٢١٨.

٨٤- ينظر نفسه ص ٢١٨ - ٢٢٠.

٨٥- ينظر نفسه ص ٢٢١ - ٢٢٤.

٨٦- ينظر نفسه ص ٢٢٤.

٨٧- ينظر نفسه ص ٢٢٦.

٨٨- ينظر نفسه ص ٢٢٩.

٨٩- ينظر نفسه ص ٢٣٣.

٩٠- ينظر نفسه ص ٢٣٣.

٩١- ينظر نفسه ص ٢٣٥.

٩٢- ينظر نفسه ص ٢٣٨.

٩٣- ينظر: الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، مكتبة العبيكان / الرياض، ط١، سنة ١٩٩٣ م، ص ٢١٣ - ٢٩٩.

٩٤- ينظر: محمد بسّام رشدي الزين: المعجم المفهرس لمعاني القرآن الكريم، دار الفكر / دمشق، ط١، سنة ١٩٩٥م، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

وينظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث/ القاهرة، د. ط، سنة ١٩٨٧م، صـ ٢١٧ - ٢١٨. وذكر الباحث أنّ (الحمد) بتصاريفه المختلفة بلغ (٦٨) مرة، تنظر ص ٢١٧.

٩٥- جامع البيان في تفسير القرآن، دار الجيل / بيروت، د. ت، ١ / ٤٦.

٩٦- ينظر: الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم،، ص ٢٢٣.

٩٧- ينظر نفسه ص ٢٣٥.

٩٨- ينظر نفسه ص ٢٤٣، وينظر: الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٠٧.

٩٩- ينظر: الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص ٢٤٧، وينظر: المفردات في غريب القرآن ص ٢٦١ - ٢٦٢.

١٠٠- ينظر: الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، صـ ٢٥٤، وينظر: الإعجاز البياني للقرآن ص ٢١١.

١٠١- ينظر: الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، ص ٢٥٩.

١٠٢- ينظر نفسه ص ٢٦٢.

١٠٣- ينظر نفسه ص ٢٦٦.

١٠٤- ينظر نفسه ص ٢٦٧.

١٠٥- ينظر نفسه ص ٢٧٨.

١٠٦- ينظر نفسه ص٢٨٠.

١٠٧- ينظر نفسه ص ٢٨١ - ٢٨٢.

١٠٨- ينظر نفسه ص ٢٨٥.

١٠٩- ينظر نفسه ص ٢٩٦

١١٠- ينظر نفسه ص ٢٩٧.

١١١- دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته - الفصل الرابع: الترادف وأشباه الترادف في القرآن الكريم، ص ١٠٢.

١١٢- ينظر نفسه ص ١٠٤.

١١٣- ينظر نفسه ص ١١٣.

١١٤- الترادف في الحقل القرآني، مؤسسة الرسالة / بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م، ص ١٦.

١١٥- ينظر نفسه ص ١٦ - ١٧.

١١٦- ينظر نفسه ص ٣٥.

١١٧،١١٨- ينظر نفسه ص ١٠١.

١١٩- ينظر نفسه ص ١٠٤.

١٢٠- ينظر نفسه ص ٢٤ - ٢٧، وينظر ص ٣١ - ٣٢.

١٢١- الكتاب - طبعة عبد السلام هارون، ١ / ٢٤.

١٢٢- ينظر:

- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، حققه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية / بيروت، سنة ٢٠٠١ م، ١ / ١٣٣ - ١٤٣.
- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تعليق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير / دمشق- بيروت، ط ٥، سنة ٢٠٠٢ م، ١ / ٤٤٥ - ٤٦٠.

١٢٣- ينظر:

- صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين / بيروت، ط ١٣، سنة ١٩٩٧م، الفصل السابع، ص ٣٠١ - ٣٠٨.

- رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي / القاهرة، ط٥، سنة ١٩٩٧م، الفصل الثالث ص ٣٢٤ - ٣٣٦.
- حسن ظاظا: كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار النهضة العربية / بيروت، د. ت، ص ١٠٧ - ١١١.
- محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، دار ومكتبة الحياة / بيروت، ط١، سنة ١٩٨٠م، ص ٤١٦ - ٤١٨.

١٢٤- البرهان في علوم القرآن، ١ / ١٣٤.

١٢٥- ينظر: الدامغاني: الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تحقيق محمد حسن أبو العزم الزفيتي، طبعة وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث / القاهرة، سنة ١٩٩٢ م.

مثلا: على وجهين: ينظر ١ / ٣٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٢.

على عشرين وجها: ينظر ١ / ٥٧ - ٦٢.

١٢٦- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، دار غريب / القاهرة، ط ١٢، سنة ١٩٩٧م، ص ٧٢.

١٢٧- دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني / القاهرة، ط ٣، سنة ١٩٩٢م، ص ٥٥ - ٥٦.

١٢٨- فصول في فقه اللغة، ص ٣٣٤.

١٢٩- كلام العرب من قضايا اللغة العربية، ص ١٠٩.

١٣٠- ينظر نفسه ص ١١١.

١٣١- الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، دار الفكر/ دمشق - بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٩م، ص٢٦٧.

١٣٢- الدامغاني: الوجوه والنظائر، ١ / ٣٠.

١٣٣- ينظر نفسه ١ / ٥٧ - ٦٢.

١٣٤- ينظر مثلا:

- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨ هـ): أسباب النزول، تحقيق أيمن صالح شعبان، دار الحديث / القاهرة، ط٤، سنة ١٩٩٨، صـ ٢٥٢، ٢٩٠، ٣٠٨، ٣٨٣، ٣٩٦.

- السيوطي (ت ٩١١ هـ): لباب النقول في أسباب النزول، تحقيق ياسر صلاح عزب، المكتبة التوفيقية / القاهرة، ص ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٧٣.

١٣٥- ينظر: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني / القاهرة، جدّة، ط ٣، سنة ١٩٩٢م، ص ٥٥.

١٣٦- ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب / القاهرة، ط٣، سنة ١٩٩٨م، ص ١٩١ - ٢٤٠.

١٣٧- حققه أولا: أبو إسحق إبراهيم أطفيش الجزائري، المطبعة السلفية / القاهرة، سنة ١٣٤٧ هـ.

حققه ثانيا: عبد الإله نبهان، ونشر مرتين:

الأولى: وزارة الثقافة / دمشق سنة ١٩٩١م.

الثانية: مكتبة لبنان / بيروت سنة ١٩٩٦م.

١٣٨- الكتاب - طبعة عبد السلام محمد هارون، ٤ / ٣٠٣.

١٣٩- ينظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، عني به خالد العطار، دار الفكر / بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٩م، ١ / ١٩٣

١٤٠- ينظر: كتاب الأضداد ص ٣٨.

١٤١- تنظر مقدمة تحقيق (المُعرّب من كلام الأعجمي: للجواليقي)، ص ١٣.

١٤٢- ينظر مقالة: دفاع عن كتاب الله تعالى: قضية الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم، منشور بمجلة الوعي الإسلامي، العدد، ٨٢، سنة ١٣٩١هـ ص ١٣.

١٤٣- ينظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ١ / ١٩٤.

١٤٤- تنظر: دراسات في فقه اللغة، ص ٣١٤ - ٣٢٧.

١٤٥- تنظر: فصول في فقه العربية، ص ٣٥٨ - ٣٦٨.

١٤٦- تنظر: كلام العرب من قضايا اللغة العربية، ص ٥٧ - ٧٢.

١٤٧- ينظر: المعرّب في القرآن الكريم- دراسة تأصيلية دلالية، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية / ليبيا، ط١، سنة ٢٠٠١م، ص ١٢١.

١٤٨- ينظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ١ / ١٩٤ - ١٩٥.

١٤٩- ينظر: الاشتقاق و التعريب، طبعة القاهرة، سنة ١٩٠٨ م، ص ٨٣.

* ينظر: جواهر التفسير - أنوار من بيان التنزيل، مكتبة الاستقامة / مسقط، ط ١، سنة ٢٠٠٤م، قال في صـ ٦١: "أما الألفاظ المنقولة عن لغة العجم فإن سلم وجودها في القرآن فإنها لم تأت فيه إلا بعد ما أصبحت معروفة المقاصد عند العرب بعدما نقلوها إلى لغتهم وتداولوها فيما بينهم".

١٥٠- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، حققه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية / بيروت، سنة ٢٠٠١ م، ١ / ٣٦٢.

وينظر: السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية / صيدا - بيروت، د. ط، سنة ١٩٩٢، ١ / ٢٦٩.

١٥١- ينظر: أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج، مؤسسة النوري/ دمشق، ط ٢، سنة ١٩٩٣م، ص ٢٥ - ٤٤.

١٥٢- ينظر: المعرّب في القرآن الكريم- دراسة تأصيلية دلالية، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية / ليبيا، ط١، سنة ٢٠٠١م، ص ١٤٥ - ٣٣٨.

١٥٣- ينظر نفسه ص ١٢١.

١٥٤- ينظر أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم: معجم القراءات القرآنية، مع مقدمة في القراءات وأشهر القرّاء، عالم الكتب/ القاهرة، ط٣، سنة ١٩٩٧م، ٣ / ١٠٠.

١٥٥- ينظر:

- النحاس: إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، مطبعة العاني / بغداد، د. ت، ٣ / ٥٨٢.

- مكي القيسي: مشكل إعراب القرآن، تحقيق ياسين محمد السواس، اليمامة / دمشق - بيروت، ط ٣، سنة ٢٠٠٢م، ص ٧٣٧.

- ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية / بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م، ٣ / ٥١٥.

١٥٦- ينظر:

- الفرّاء: معاني القرآن، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، وعلي النجدي ناصف، دار السرور، د. ت، ٣ / ١١٨.
- و أبو عبيدة: مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي/ القاهرة، د. ط، سنة ١٩٨٨م، ١ / ١٧ - ١٨.
- والطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع/ دمشق - بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م، ٩ / ٢٧٠.
- والبغوي: معالم التنزيل، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥م، منشور مع (تفسير الخازن)، ٤/ ١٧٠.
- الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، سنة ١٩٩٨م، ٥ / ٤٧٧.
- وابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفارس، د. ط، د. ت، ٣ / ٥١٥.
- والطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، و فضل الله اليزدي الطبطبائي، دار المعرفة / بيروت، ط١، سنة ١٩٨٦م، ٦ / ٧٢١.
- وابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي / بيروت، ط٤، سنة ١٩٨٧م، ٥ / ١٣٨.
- الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٧م، ٧ / ٤٦١.
- والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية / بيروت، د.ط، سنة ١٩٩٣م، ٥ / ٢٥٨.
- النسفي: تفسير النسفي، دار إحياء التراث العربي/ فيصل عيسى البابي الحلبي، د. ط، د. ت، ٣ / ١٢، ٤ / ١٣٢.

- وأبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٣م، ٦ / ٩٣.
- والبيضاوي: لباب التأويل في معاني التنزيل، ضبطه عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية / بيروت،ط١، سنة ١٩٩٥م، ٢/ ٣٨٥.
- والسيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، مطبعة الأنوار المحمدية / القاهرة، د. ط، سنة ١٩٩٠م، ٤ / ٢٤٤.
- وأبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي / بيروت، ط٤، سنة ١٩٩٤م، ٩ / ٧٥.
- والشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، اعتنى به: يوسف الغوش، دار المعرفة / بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٥م، ٣ / ٣٥٥.
- والآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية / بيروت، طـ ١، سنة ١٩٩٤م، ٨ / ٢٥٨.
- وابن عاشور: التحرير والتنوير - دار سحنون للنشر والتوزيع / تونس، د. ط، سنة ١٩٩٧م، ٧ / ٣١٣.
- ووهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر / دمشق - بيروت، ط١، سنة ١٩٩٨م، ١٥ / ٢٣٩.

١٥٧- حكاه: الزمخشري، والخازن، والنسفي، والآلوسي، وابن عاشور، تنظر المصادر السابقة.

١٥٨- حكاه: أبو عبيدة، والزجاج، و الزمخشري، وابن عطية، والطبرسي، والرازي، وأبو حيان الأندلسي، والبيضاوي، والسيوطي، والآلوسي، وابن عاشور.

١٥٩- حكاه: ابن الجوزي، والآلوسي.

١٦٠- حكاه: ابن دريد ونقله ابن عاشور في تفسيره.

١٦١- نقله ابن عاشور.

١٦٢- حكاه: ابن قتيبة ونقله عنه ابن عاشور والزحيلي.

١٦٣- حكاه: ابن دريد ونقله: الآلوسي و ابن عاشور.

١٦٤- ينظر:

- مكي القيسي: مشكل إعراب القرآن، ص ٧٣٧.
- والعكبري: التبيان في إعراب القرآن، ٢ / ٤٣٥.
- وأبو حيان: البحر المحيط، ٦ / ٩٣.
- وأبو السعود: إرشاد العقل السليم، ٩ / ٧٥.

١٦٥- ينظر ما تقدم.

١٦٦- حكاه: البيضاوي.

١٦٧- ينظر: العكبري:

- التبيان في إعراب القرآن، ٢ / ١٤٧.
- و إملاء ما منّ به الرحمن ٢ / ١٠٢.

١٦٨- ينظر المستشرق نيكولاي دوبرسان: كيف تهضم اللغة العربية المستعارة من اللغات الأوربية، ترجمة حسين العزاوي، بحث منشور في كتاب المورد، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، سنة ١٩٨٦م، ص ٢١٣ - ٢٢١.

١٦٩- ينظر: التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب،طبعة المجد، سنة ١٤٠٢ هـ ص ٢١٥.

١٧٠- ينظر: الألفاظ الفارسية المعرّبة، دار العرب/ البستاني، ط٢، سنة ١٩٨٧م، ص١٠.

١٧١- ينظر: المعجم الذهبي (فارسي - عربي)، دار العلم للملايين / بيروت، ص ٦٦.

١٧٢- نقله السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ١ / ١٩٤.

١٧٣- مجمع اللغة العربية – القاهرة: كتاب في أصول اللغة/ مجموعة القرارات التي أصدرها المجمع من الدورة التاسعة والعشرين إلى الدورة الرابعة والثلاثين في أقيسة اللغة وأوضاعها العامة وفي الألفاظ والأساليب، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية / القاهرة، سنة ١٩٦٩م، ١ / ٧٢.

١٧٤- نفسه، ١ / ٧٣.

١٧٥- نفسه، الجزء الثاني، ط١، سنة ١٩٧٥م، ٢ / ٢٥١.

الفصل الثالث

المشكل في النحو والقرآن الكريم

- المبحث الأول : التنازع بين النحو والتفسير
- المبحث الثاني: رأي الفرّاء في (الذي)
- المبحث الثالث: إعراب جديد للمنادى المعرّف ب(أل)

الفصل الثالث

المشكل في النحو والقرآن الكريم

ارتقى القرآن الكريم بأساليب العربية، وصور التعبير بها على الرغم من أنه نزل (قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون ـ سورة فصلت ـ ٣) إلاّ أنّ أساليبه وتراكيبه نهضت بنظرية (النظم) التي هي قوام إعجازه البياني، ويبحث هذا الفصل ثلاث مسائل هي:

الأولى: التنازع بين النحو والتفسير.

الثانية: رأي الفرّاء في (الذي).

الثالثة: إعراب جديد للمنادى المعرف بأل.

المبحث الأول : التنازع بين النحو والتفسير

منذ (كتاب سيبويه ت نحو(١٨٠ هـ) الذي حظي بعناية الدارسين قديما، وحديثا، طفق العلماء يتناولونه بالشرح، والتعليق، والنقد لإيضاح ما يبدو غامضا، وحلّ مشكله، ونسبة أبياته، وشرح شواهده، وأبنيته، ومصطلحاته، والردّ عليه، أو الانتصار له، حتى تحصّل من هذا كلّه تراث ضخم كان هو المحور فيه والباعث إليه [١]، فقيل فيه: "لم يعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه، وذلك أن الكتب المصنفة في العلوم مضطرة إلى غيرها، وكتاب سيبويه لا يحتاج من فهمه إلى غيره." [٢]

وفي مرحلة لاحقة طغى في التأليف النحوي نهج الشروح، والتعليقات، والحواشي، للبحث في الغامض والمشكل والغريب والجمل، فضاق أفق الدرس اللغوي، حتّى نهض عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) ب(علم المعاني)، وتناول أموراً تتصل بالتركيب والنظم، ولكن الدرس اللغوي بقي يترجح بين (متن) و (شرح)، وتكرار واجترار ؛ لأن الأزمة فيه أزمة منهج !

ومن مشكل النحو (باب التنازع) الذي "يعدّ... من أكثر الأبواب النحوية اضطراباً وتعقيداً وخضوعاً لفلسفة عقلية خيالية." [٣] إذ تناوله النحاة من منطلق (نظرية العامل).

على الرغم من أنّ مصطلح (التنازع) ظهر لدى ابن هشام الأنصاري [٤] (ت ٧٦١ هـ) فجرى لاحقاً، واستقرّ مصطلحاً، لكنّ مفهومه ومسائله وما جرّ من خلاف مما حفلت به كتب النحو منذ (سيبويه ت نحو ١٨٠ هـ) [٥] حتّى يومنا هذا، كان كلّه واضحاً، ومحدداً.

ذكر النحاة قدامى ومحدثين تعريفات عدة للتنازع صاغها عباس حسن في عبارة شاملة فقال: "ما يشتمل على فعلين ـ غالباً ـ متصرفين مذكورين، أو على اسمين يشبهانهما في العمل، أو على فعل واسم يشبهه في العمل، وبعد الفعلين، وما يشبههما معمول مطلوب لكلّ من الاثنين السابقين." (٦)

وساد في التنازع ثلاثة مذاهب:

الأول: مذهب سيبويه (٧) ومن تابعه من جمهور البصريين (٨) وينصّ على الإضمار قبل الذكر، أي يُعمل الثاني لقرب جواره، لأنه لا ينقض معنى.

الثاني: مذهب الكسائي (ت ١٨٩ هـ) ومن تابعه (١٠) في إعمال الأول.

الثالث: مذهب الفرّاء (ت ٢٠٧ هـ) في أنّ الاسم الواحد فاعل للفعلين. (١١)

وبقي الدرس النحوي يترجح بين أن يتبنى هذا الرأي أو ذاك، ويتفنن في ذكر أمثلة افتراضية (١٢) لم يرد لها مثيل عن العرب، مما كان سبباً في أن يحمل عليهم ابن مضاء القرطبي (ت ٥٩٢ هـ) (١٤) ولكنّه لم يخرج عن دائرة مذهب البصريين الذي رأى أنه الأسهل. (١٥)

أما المعاصرون فعلى الرغم من رفضهم الأمثلة التي افترضها القدماء ورأوا أن حذفها من النحو لأنها صور من التعبير لم تجر بها العربية، ولا نطق بها العرب إلا أنهم لم يخرجوا عما دار في كتب النحو. (١٦)

وقد تنبّه باحثان معاصران على ما ذكره أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) في كتابه (فقه اللغة وسرّ العربية، تحقيق فائز محمد، وإميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط: ٤، سنة ١٩٩٩ م، ص ٢٩٢ إذ قال: "الفصل الثاني: يناسبه في التقديم والتأخير كما قال تعالى عن ذي القرنين (آتوني أفرغ عليه قطراً) تقديره آتوني قطراً أفرغ عليه."

فذكر ذلك محمد حماسة عبد اللطيف في كتابه:

(الضرورة الشعرية في النحو العربي، مكتبة دار العلوم ـ دار مرجان للطباعة ـ مصر، سنة ١٩٧٩ م، ص ٤٢٥ - ٤٢٦.)

ورشيد بلحبيب في كتابه:

(ضوابط التقديم وحفظ المراتب في النحو العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة ـ المغرب، مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء، سنة ١٩٩٨ م، ص ٩٨.)

ووقفت على الآية (آتوني أفرغ عليه قطراً ـ الكهف) في تفسير القرطبي (٦٧١ هـ) الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية ـ بيروت، سنة ١٩٩٣ م، ٦ / ٤٢ إذ قال تعقيباً على الآية: "أي أعطوني قطراً أفرغ عليه، على التقديم والتأخير."

وعدت إلى رسالتي دكتوراه بحثتا في جهود القرطبي النحوية الأولى:

القضايا النحوية في تفسير القرطبي للدكتور كاظم إبراهيم كاظم، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٨٢ م.

والأخرى: أبو عبد الله القرطبي وجهوده في النحو واللغة في كتابه الجامع لأحكام القرآن، للدكتور عبد القادر رحيم جري الهيتي، دار البشير ـ عمّان، ومؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط: ١، سنة ١٩٩٦ م، وقد نوقشت عام ١٩٨٦ م.

فلم أجد أياً منهما قد وقف على رأي القرطبي هذا !!

يتضح لنا مما تقدم أن إشارة الثعالبي والقرطبي انطلقت من فهمهما بناء الجملة العربية، وحرية المفردات فيها، تقديماً وتأخيراً، وسلامة التعبير، والمعنى المراد، والنظر أن الكلام قد يتركب على غير ما تقتضي به القاعدة اتكالاً على أمن اللبس. (١٧)

وختاماً أقول:

- أرفض دعوة إلغاء [١٨] موضوع (التنازع) وسيلةً لحلّ المشكل الذي فيه لأن فيه هروباً من مواجهة المشكل.
- إن المعاني السياقية لبنية الأمر تعود إلى البنية العميقة في وظائف ثلاث [١٩]، ويعدل عنها بوساطة التقديم والتأخير على وفق ما سمّاه تمام حسان ب(الرخصة) [٢٠]، والتغيير الذي يطرأ لعناصر الجملة العربية بتحريك عنصر معين. [٢١]
- ندعو إلى أن يدرس موضوع (التنازع) على وفق إشارة الثعالبي والقرطبي، ففيها حلّ لمشكل (التنازع) في ضوء ما ورد عن العرب، وصور الاستعمال القرآني. [٢٢]

لأن الجملة القرآنية فضلاً عن الجملة العربية (الأصل) لم تدرس بعناية مع أن تصاريفها لا ينتهي منها العجب في أصولها وتداخلها وتتابعها، وهذا الدرس ليس له قانون يضبطه وقياس يخضع له وإنما مرجعه إلى المعاني. [٢٣]

الهوامش

* من عنوانات (المشكل في النحو):

- مشكل إعراب القرآن ـ لمكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ).
- كشف المشكل في النحو ـ لحيدرة اليمني (٥٩٩ هـ).

١. ينظر: مازن المبارك: الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، دار الفكر المعاصر ـ بيروت، ط: ٣، سنة ١٩٩٥ م، ص ١٣٥.

٢. هذه مقولة المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد توفي سنة ٢٨٥ هـ)، وردت عند البغدادي: خزانة الأدب، دار الكاتب العربي، ١ / ٣٧١.

٣. عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف ـ القاهرة، ط: ٩، سنة ١٩٨٧ م، ٢ / ٢٠١.

٤. ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: ١، سنة ١٩٩٧ م، ١ / ٢٧٣.

٥. قال سيبويه: "باب الفاعلين والمفعولين اللذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل ما يفعل به الآخر، وما كان نحو ذلك." الكتاب (طبعة بولاق) ١ / ٣٧ = (طبعة عبد السلام هارون) ١ / ٧٣، ٧٤.

٦. النحو الوافي (مرجع سابق) ٢ / ١٨٧.

٧. ينظر: الكتاب (مصدر سابق) = بولاق ١ / ٣٧، هارون ١ / ٧٣، ٧٤.

٨. ينظر في هذا مثلاً:

- المبرد (ت ٢٨٥ هـ): المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب ـ القاهرة، سنة ١٣٩٩ هـ، ٤ / ٧٤.
- الزجاجي (ت ٣٤٠ هـ): الجمل، تحقيق علي توفيق الحمد، دار الأمل ـ إربد، ط: ٢، سنة ١٩٨٥ م، ص ١١١ - ١١٦.

- شرح جمل الزجاجي ـ لابن هشام (ت ٧١٦ هـ) تحقيق علي محسن مال الله، عالم الكتب ـ بيروت، ط: ٢، سنة ١٩٨٦ م، ص ١٩٢.
- الزمخشري (ت ٥٢٩ هـ): المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، ط: ١، سنة ١٩٨٨ م، ص ٣٨.
- أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧ هـ): الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ـ بيروت، سنة ١٩٨٧ م، المسألة (١٣) ١ / ٨٣...
- ابن يعيش (ت ٦٤٦ هـ): شرح المفصل، عالم الكتب ـ بيروت، د. ت، ١ / ٧٧.

الرضى الاستراباذي (٦٨٦ هـ): شرح الكافية، تحقيق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس ـ بنغازي، ط: ٢، سنة ١٩٩٦ م، ١ / ٢٠١ - ٢١٣.

- أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ): ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق رجب عثمان محمد ورمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط: ١، سنة ١٩٩٨ م، ٤ / ٢١٣٩.
- ابن هشام (ت ٧٦١ هـ): أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق إميل بديع يعقوب، ١/ ٢٧٣
- ابن عقيل (ت ٧٦٩ هـ): شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، مؤسسة الصادق ـ طهران، سنة ١٣٧٥ هـ، ٢ / ٤٢٦ - ٤٣٠.

٩. ينظر: أبو البقاء العكبري: التبيين عن مذاهب البصريين والكوفيين، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان ـ الرياض، ط: ١، سنة ٢٠٠٠ م، ص ٢٥٢.

١٠. تابعه هشام الضرير، والسهيلي، ينظر: خالد الأزهري: شرح التصريح على التوضيح، دار الفكر ـ بيروت، د. ت، ١ / ٣٢١.

١١. ينظر: معاني القرآن (طبعة دار السرور) ٢ / ١٦٠.

وينظر: السيوطي: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب ـ بيروت، سنة ٢٠٠١ م، ٥ / ١٣٧.

١٢. ينظر: ابن مضاء القرطبي: الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة، ط: ٣، سنة ١٩٨٨ م، ص ٩٧، ٩٨.

١٣. ينظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف ـ القاهرة، ط: ٨، سنة ١٩٩٩ م، ص١١٤

١٤. ينظر: الرد على النحاة، ص ٩٤، ٩٥.

١٥. نفسه، ص ١٠١.

١٦. ينظر:

- عباس حسن: النحو الوافي (مرجع سابق)، ص ٢٠١ - ٢٠٣.
- محمد صلاح الدين مصطفى بكر: النحو الوصفي من خلال القرآن، موسسة الصباح ومكتبة النهضة العربية، سنة ١٩٨٠ م، ص ١٠٣ وما بعدها.
- شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده، دار المعارف - القاهرة، ط: ٢، سنة ١٩٨٦ م، ص ١١٣.
- إبراهيم رفيدة: النحو وكتب التفسير، الدار الجماهيرية للنشر، ط: ٣، سنة ١٩٩٠ م، ٢ / ٨١١

أبو سعيد محمد عبد المجيد: قضية التنازع في الاستعمال اللغوي، بحث في مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج ١٣، العدد ٢٢، سنة ١٤٢٢ هـ، من ص ٨٤٥ إلى ص٩٠٠.

- فيصل إبراهيم صفا: ظاهرة التنازع في العربية، مدخل تحويلي، بحث في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، سنة ١٩٨٨ م، المجلد الثامن، العدد ٣٠، م ص ٦ إلى ص ٦٤.

١٧. ينظر: تمام حسان: البيان في روائع القرآن، عالم الكتب ـ القاهرة، ط: ٢، سنة ٢٠٠٠م، ١ / ٣٩٥.

١٨. ينظر: شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده، دار المعارف ـ القاهرة، د.ت، سنة ١٩٨٦ م، ص ١١١.

١٩. ينظر: أسامة البحيري: تحولات البنية في البلاغة العربية، دار الحضارة للطبـع والنـشر والتوزيع ـ طنطا، ط: ١، سنة ٢٠٠٠ م، ص ١١٧.

٢٠. تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ١ / ٣٩٥.

٢١. ينظر: عبده الراجحـي: النحـو العربـي والـدرس الحـديث، دار المعـارف الجامعيـة ـ الاسكندرية، سنة ١٩٨٨ م، ص ١٥٤.

٢٢. ينظر: محمد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكـريم، مطبعـة حـسّان ـ القاهرة، د. ت، القسم الثالث، الجزء الثاني، ص ٦٩.

٢٣. ينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شـاكر، دار المـدني ـ جدة، سنة ١٩٩٢ م، ص ٩٣

المبحث الثاني: رأي الفراء في (الذي)

رأي الفرّاء (أبو زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧ هـ) في (الذي) منذ أكثر من خمسة عشر عاماً كنتُ أدرس موضوع (الجمل التي لها محل من الإعراب، والتي لا محل لها...) فوقع في نفسي أن أعلن على الطلبة: أنني لا أقول بأن جملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، وحاولت أن أجد توجيهاً مناسباً لها، وطفقت أبحث في كتب النحو قديمها وحديثها فلم أجد حينها ما يهديني إلى توجيه. وفي ضوء النظر إلى عناصر الجملة عن طريق ترابطها مع ما يتعلق بها ووضعها في سياق ترتيبي إذ أن كثيراً من الأدوات تتحد مع غيرها ومراعاة (الاستبدال)، " فإذا أدت كلمة وظيفة كلمة أخرى دون أن يترتب على ذلك تغيير في أساس التركيب أو عدول عن معنى إلى آخر كان لها ما لتلك."[1] فحاولت مثلاً: جاء الذي سافر. فقلت معناه جاء المسافر، وهكذا إلى أن استقر عندي أن الأسماء الموصولة كلها تصلح أن تكون أدوات مصدرية تؤول هي وما بعدها بمشتق !

وكدت أعلن هذا ! وأنه من بنات أفكاري !! وشعرت بالزهو حيناً، وبالتردد حيناً آخر، ثم عدتُ إلى نفسي أسألها:

ألا يمكن أن يكون هناك نحوي من القدامى أو المحدثين قال بهذا ؟!

ومن توفيق الله أني وقفت على نصّ في معاني القرآن للفرّاء (أبي زكريا يحيى بن زياد ت ٢٠٧ هـ) يقول تعقيباً على الآية الكريمة: (ثمّ آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن. الأنعام / ١٥٤)

قال: " تماماً على المحسن... وإنْ شئت جعلت (الذي) على معنى (ما) تريد تماماً على ما أحسن موسى، فيكون المعنى تماماً على إحسانه."[٢]

ثمّ قُدّر لي أن أقف على تفسير الآية (٦٩) من سورة التوبة و فيها: (و خضتم كالذي خاضوا...) فوجدت الطبري (ت ٣١٠ هـ) يقول فيها: "(كالذي خاضوا) يقول: و خضتم أنتم أيضاً أيها المنافقون كخوض تلك الامم قبلكم."[٣]

فتأمل قوله (كخوض) إذ فسّر(كالذي خاضول) بمصدر صريح، و ذهب أبو البقاء العكبري (ت ٦١٦ هـ) في الموضع نفسه من الآية فقال: "و في الذي وجهان: أحدهما... و الثاني أن مصدريته أي كخوضهم و هو نادر."[٤] و ربما ذهب غيرهما هذا المذهب

وفي هذا تيسير واضح ينطلق من (المعنى) ويمنح (الاسم الموصول) و (صلته) تفسيراً جديداً نتخلص فيه من عدّ جملة الصلة لا محل لها من الإعراب، ونربط بين المبنى والمعنى [٥]، لأن الأدوات ـ ومنها الأسماء الموصولة كلّها ـ ذات افتقار دائم إلى الضمائر الذي يؤدي ضرورة إلى افتقار متأصل إلى السياق.[٦]

وقد عدّ أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) (الذي) من أدوات الصلة، فقال: " الذي قد تُوصّلَ به إلى صفة المعارف بالجمل."[٧] ولم يعدّها مهدي المخزومي من أدوات الوصل. [٨] ومن الغريب ألاّ يستثمر شوقي ضيف الملازمة بين (اسم الموصول) و (صلته) التي قال عنها: " مما يؤكد أنها جزء لا يتجزأ من الاسم الموصول."[٩] ولم ينفذ بجرأة إلى رأي الفرّاء الذي وقف عليه في كتابه (المدارس النحوية) على ما ذكرناه مما يدفعنا إلى إذاعة رأي الفرّاء والدعوة إلى إشاعته في الدرس النحوي وعلى الوجه الآتي:

كل اسم موصول: أداة مصدرية.

كل جملة الصلة أو شبه الجملة تؤول بمشتق أو مصدر.

ويعرب هذا المؤول على وفق موقعه في الجملة، وبذا نكون قد أذعنا مفهومياً دلالياً جديداً في الأسماء الموصولة وصلاتها.

والله الموفق للصواب.

الهوامش

١. محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، دار غريب ـ القاهرة، د. ت، سنة ٢٠٠٣ م، ص١١، ١٣.

٢. معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار، دار السرور، د. ت، ١ / ٣٦٥.

وينظر:

- أحمد مكي الأنصاري: أبو زكريا الفرّاء ومذهبه في النحو واللغة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، نشر الرسائل الجامعية، القاهرة، سنة ١٩٦٤ م، ص ٤١٨.

- شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف ـ القاهرة، ط: ٨، سنة ١٩٩٩ م، ص٢١١.

٣. تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) ٣/ ٣٤٠-٣٤١.

٤. إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب و القراءات في جميع القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٧٩م، ٢/١٨.

٥. ينظر: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب ـ القاهرة، ط: ٣، سنة ١٩٩٨ م، ص١٣٥.

٦. ينظر نفسه، ص ١٢٧.

٧. الإغفال، تحقيق عبد الله بن عمر الحاج إبراهيم، المجمع الثقافي ـ أبو ظبي، سنة ٢٠٠٣، ٢ / ١٢.

٨. ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي ـ بيروت، ط: ٢، سنة ١٩٨٦ م، ص ٣٢١

٩. تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده، دار المعارف ـ القاهرة، د. ط، سنة ١٩٨٧ م، ص ١٩٦.

المبحث الثالث

إعراب جديد للمنادى المعرّف ب(أل)

لعلّ جميع النحاة تبنوا منطلق سيبويه (ت ١٨٠ هـ) في عبارة (يا أيها الرجل) إذ قال: "الرجل وصف لقولك (يا أيها) ولا يجوز أن تسكت على (يا أيها) لأنهم جاءوا ب(يا أيها) ليصلوا بذلك إلى نداء الذي فيه الألف واللام، فلذلك جيء به."[١] ولم يفسروا هذه القولة تفسيراً دلالياً ومقصدياً بل توسعوا في البنية السطحية لنداء ما فيه أل، حتّى فصّل باحث معاصر في كل ما تناوله النحاة القدامى فقال: "يجب رفع التابع مراعاة شكلية للفظ ذلك المنادى في صورتين:

إحداهما: أن يكون التابع نعتاً ومنعوته ـ المنادى ـ هو كلمة (أي) في التذكير، و (أية) في التأنيث كقوله تعالى (يا أيها الناس...) وقوله تعالى (يا أيتها النفس...) فأي، وأية مبنيتان على الضم في محل نصب، لأن كلاً منهما منادى نكرة مقصودة، و (ها) حرف تنبيه زائد زيادة لازمة لا تفارقهما، وكلمتا (الناس، والنفس) وأشباههما نعتان متحركان بحركة مماثلة وجوبا لحركة المنادى مراعاة لمظهره الشكلي فقط."[٢]

إن هذا النص يكشف ما وقع فيه النحاة القدامى من نظر سطحي ـ شكلي، وتناقض فاضح في (الزيادة اللازمة !!) وذهبوا يفرّعون المسائل في إعرابه[٣]، على الرغم أن سيبويه وضح الغرض من مجيء (يا أيها) كلّها !

ولأن "النحاة كانوا سادرين في تطبيق فكرة العمل على كلّ ما يقع في أيديهم من مسائل... أبعدهم عن أن يحسوا بالدلالات المختلفة لهذا الأسلوب."[4] حتّى خرجوا إلى تقدير المنادى[5] !

ولكي نقف على ما ورد في الاستعمال القرآني لهذا الأسلوب نقدّم الجدول الآتي:

فهرس ورود (أيّها - أيتها) في سور القرآن الكريم:

السورة	أرقام الآيات	عدد المرات
البقرة	٢١، ١٠٤، ١٥٣، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٨، ١٨٣، ٢٠٨، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٨٢.	١٣
آل عمران	١٠٠، ١١٨، ١٣٠، ١٤٩، ١٥٦، ٢٠٠.	٦
النساء	١، ١٩، ٢٩، ٤٣، ٤٧، ٥٩، ٧١، ٩٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٤، ١٧٠، ١٧٤.	١٣
المائدة	١، ٢، ٦، ٨، ١١، ٣٥، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٧، ٦٧، ٨٧، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ١٠١، ١٠٥.	١٧
الأعراف	١٥٨.	١
الأنفال	١٥، ٢٠، ٢٤، ٢٧، ٢٩، ٤٥، ٦٤، ٦٥، ٧٠	٩
التوبة	٢٣، ٢٨، ٣٤، ٣٨، ٧٣، ١١٩، ١٢٣.	٧
يونس	٥٤، ١٠٤، ١٠٨.	٣
يوسف	٤٣، ٧٠، ٧٨، ٨٨.	٤
الحجر	٦، ٥٧.	٢
الحجّ	١، ٤٩، ٧٣، ٧٧.	٤
المؤمنون	٥١.	١
النور	٢١، ٢٧، ٥٨.	٣

السورة	أرقام الآيات	عدد المرات
النحل	١٦، ١٨، ٢٩، ٣٢، ٣٨.	٥
القصص	٣٨.	١
لقمان	٣٣.	١
الأحزاب	١، ٩، ٢٨، ٤١، ٤٥، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٩، ٦٩، ٧٠.	١١
فاطر	٣، ٥، ١٥.	٣
يس	٥٩.	١
الزمر	٦٤.	١
الزخرف	٤٩.	١
محمد	٧، ٣٣.	٢
الحجرات	١، ٢، ٦، ١١، ١٢، ١٣.	٦
الذاريات	٣١.	١
الرحمن	٣١.	١
الواقعة	٥١.	١
الحديد	٢٨.	١
المجادلة	٩، ١١، ١٢.	٣
الحشر	١٨.	١
الممتحنة	١، ١٠، ١٢، ١٣.	٤
الصف	٢، ١٠، ١٤.	٣
الجمعة	٦، ٩.	٢
المنافقون	٩.	١
التغابن	١٤.	١
الطلاق	١.	١

السورة	أرقام الآيات	عدد المرات
التحريم	١، ٦،٧، ٨، ٩.	٥
المزمل	١.	١
المدثر	١.	١
الانفطار	٦.	١
الانشقاق	٦.	١
الفجر	٢٧.	١
الكافرون	١.	١

يظهر لنا من هذا الإحصاء ما يأتي:

- مجموع ما ورد من صور المنادى المعرّف بأل في القرآن الكريم (١٤٦) مرة.
- منها (١٤٤) مرة بصيغة المذكر (أيّ)، وبصيغة المؤنث (أيّة) مرتان: في سورة يوسف / ٧٠: أيتها العير، وسورة الفجر/ ٢٧: يا أيتها النفس.
- ومنها (٦) مرات بحذف (يا) أداة النداء في: سورة يوسف / ٧٠، ويس / ٥٩، والزمر / ١، والذاريات / ٣١، والرحمن / ٣١، والواقعة / ٥١.

ونعرض الآن ما قاله من وقف على إعراب هذه الآيات متأثراً بالنظرة الشكلية إلى هذه الصورة من صور أسلوب النداء لنطلع على خلطهم بين الشكل والدلالة:

قال الزجاج (أبو إسحاق إبراهيم بن السري ت ٣١٠ هـ):

"في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين. البقرة / ١٥٣) مذهب سيبويه أن (الذين) في موضع رفع صفة ل

(أيّها)، ومذهب الأخفش أن (الذين) صلة ل (أيّ)، وموضع (الذين) رفع... و(ها) لازمة ل (أيّ) عوضاً مما حُذِفَ منه وزيادة في التنبيه." (٥)

تعليق: يعرض ما قاله من سبقه من غير إضافة وليس فيه جديد.

وقال النحاس (أبو جعفر أحمد بن محمد ت ٣٣٨ هـ) في قوله تعالى (يا أيها الناس... البقرة / ٢١):

"يا حرف النداء و (أيّ) نداء مفرد ضُمّ لأنه في موضع المكني، وكان يجب أن لا يعرب فكرهوا أن يخلعوه من حركة لأنه قد كان متمكناً فاختاروا له الضمة... و (ها) للتنبيه إلا أنها لا تفارق أيّاً لأنها عوض من الإضافة... (الناس) تابع لأيّ كالنعت كما ينعت." (٦)

تعليق: إعرابه منطلق من نظرية العمل، وما قاله من قبل سابقوه.

وقال ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) في إعراب (يا أيها الكافرون):

"يا حرف نداء، و (أي) رفع بالنداء، و(ها) تنبيه و(الكافرون) نعت لأيّ وصلة له." (٧)

تعليق: وقوله لا يخرج عمّا قاله السابقون !

وقال مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ) في إعراب (يا أيها الناس. البقرة / ٢١):

"أيُّ منادى مفرد مضموم، و(الناس) نعت له، ولا يجوز نصب (الناس) عند أكثر النحويين لأنه نعت لا يجوز حذفه، فهو المنادى في المعنى." (٨)

تعليق: ويلحظ مكي المعنى أيضاً ولكنه يتبنى ما قيل !

وقال الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر ت ٥٣٨ هـ) في قوله تعالى (يا أيها الناس... البقرة / ٢١):

"يا حرف وضع في أصله لنداء البعيد... و(أي) وصلة إلى نداء ما فيه أل... وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه... حتى يصح المقصود بالنداء... فالذي يعمل فيه حرف النداء هو (أي) والاسم التابع له صفة."(٩)

تعليق: نظر الزمخشري إلى هذا التركيب نظرة تفكيكية جميلة ولكنه استسلم في آخر قوله إلى ما شاع قبله من أن المعرّف بأل تابع ! ولم يستطع التخلص من تبعيته !!

وقال أبو البقاء العكبري (ت ٦١٦ هـ) في إعراب قوله تعالى (يا أيها الناس. البقرة / ٢١):

"أي اسم مبهم لوقوعه على كل شيء أتي به في النداء توصلاً إلى نداء ما فيه الألف واللام إذ كانت (يا) لا تباشر الألف واللام، وبنيت لأنها اسم مفرد مقصود و (ها) مقحمة للتنبيه... و(الناس) وصف لأي لابدّ منه لأنه المنادى في المعنى."(١٠)

تعليق: يراعي العكبري المعنى، ولكنه لم يتخلص مما قيل !

قال محيي الدين درويش (معاصر) في قوله تعالى (يا أيها الناس... البقرة / ٢١):

"يا أيها، يا: حرف نداء للمتوسط ولم يقع النداء في القرآن بغيرها من أدوات النداء، وأي: منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب، الناس: بدل من أي على اللفظ."(١١)

تعليق: لقد أغرق المؤلف في إعراب هذه الآية وانطلق في تفصيل ما وقع فيه سابقوه.

وخلاصة القول:

إن الوقوف على ما تداوله كتب النحو قديمها وحديثها ومعاصرها يعرفك بمنطلق واحد لدى النحاة والمفسرين ولم أجد أحداً خرج عما عرضناه، مما يجعلنا نقول مطمئنين: إن الانطلاق من المعنى الذي أشاروا إليه باستحياء، ومعرفة المقصود من الطريقة التي استعملها العرب والقرآن في نداء ما فيه أل هو ما نعوّل عليه في رأينا هذا وهو أن نعدّ: يا + أي (أو أية) + ها جميعها أداة نداء والمعرّف بأل هو المنادى إعراباً تيسيراً لهذا المبحث في تقديمه إلى المتعلمين والدارسين والباحثين، والله الموفق للصواب.

الهوامش

١. الكتاب (طبعة عبد السلام هارون)، عالم الكتب ـ بيروت، ط: ٣، سنة ١٩٨٣ م، ٢ / ١٠٦.

٢. عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف ـ القاهرة، ط: ٩، سنة ١٩٨٧ م، ٤ / ٤٦.

٣. ينظر: الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب ـ بيروت، ط: ١، سنة ١٩٨٨ م، ١ / ٩٨، ٢٢٨.

٤. مهدي المخزومي: في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي ـ بيروت، ط: ٢، سنة ١٩٨٦ م، ص ٣٠٣.

٥. معاني القرآن وإعرابه (مصدر سابق)، ١ / ٢٢٨.

٦. إعراب القرآن، مطبعة العاني ـ بغداد، سنة ١٩٧٧ م، ١ / ١٤٦، ١٤٧.

٧. إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، مكتبة المتنبي ـ القاهرة، تصحيح عبد الرحيم محمود، سنة ١٣٦٠ هـ ص ٢١٢.

٨. مشكل إعراب القرآن، تحقيق ياسين محمد السواس، اليمامة للطباعة، دمشق ـ بيروت، ط: ٣، سنة ٢٠٠٣ م، ص ٥١.

٩. تفسير الكشاف، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان ـ الرياض، ط: ١، سنة ١٩٩٨ م، ١ / ٢١٠، ٢١١.

١٠. إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: ١، سنة ١٩٧٩ م، ١ / ٢٣.

١١. إعراب القرآن الكريم وبيانه، اليمامة، دمشق ـ بيروت، ط: ٧، سنة ١٩٩٩ م، ١ / ٦٤.

الخاتمة

ممّا تعلمناه في (منهج البحث) ولا سيما في مجلس أستاذنا المرحوم علي جواد الطاهر أن الطريق التي داستها أقدام عدة أكثر صعوبة من الطريق التي لم تطأها قدم ! ربّما يعجب القارئ من هذه المفارقة، ولكنّي أذكّره في أن هذا في البحث ! وليس على وجه الحقيقة ! تذكرتُ هذا وأشياء أخرى وأنا أستعد للكتابة في (المشكل)، و (الإعجاز)، و (مسائل أخرى) في التعبير القرآني، ومن بعض ما ارتسم أمامي مطلع عنترة في معلقته: "هل غادر الشعراء من متردم".

وعرفت اشتباك الخطى في الموضع الواحد ! ولكني أصررتُ ـ وهذا عناد طفولي متأصل عندي ـ على أن أقتحم تلك الطريق، وأبدي رأياً في هذه المسألة أو تلك، فكان من ذلك:

- مبحث الحروف، فانتهيت إلى أن لا حرف يأخذ مكان حرف آخر، لأننا لم نستقصّ معاني (الحروف)، والصور التي يرد فيها الاستعمال، والاتساع الذي ينتظم أساليب العربية.
- وفي مبحث الظواهر اللغوية تبين أنّ الفرق بين مفردة وأخرى تقادم عليه العهد من جهة، ومن جهة الأصل اللغوي العام وما يتفرع عنه، فضلاً عن أن السياق قد يتيح للمفردة عدولاً وانزياحاً فنقترب أو نبتعد عما انطبعت به من دلالة، وأن ننظر بعين الإنصاف المتجرد، لا بعين الإنحياز.

ثم جاء مبحث النحو والقرآن ليقدم تيسيراً في ثلاث قضايا:

التنازع، والاسم الموصول، ونداء ما فيه أل، إسهاماً في تخفيف ما أشكل، ولعل في هذا متسعاً للنقاش قبولاً ورفضاً، لنصل إلى كلمة سواء.

ولا أدري لِمَ أخرتُ الكلام على رأيي في إعجاز القرآن الذي طرحته في أول الكتاب ؟! ربّما ليكون مسك الختام، وهو يقوم على الإسناد، وممّ يتكون، وممّ ينطلق، وإلام يهدف !

بعد هذا كلّه أقدم خلاصة جهد إلى كل من يعنيه أمر العربية، وكيف ارتقى بها التعبير القرآني الذي ندعو إلى إشاعة النظر فيه لنقتبس منه ما يغنيها، وما يرفع من شأنها لدى متكلميها الذين تتكسر العربية في أشداقهم اليوم !

والله أسأل أن يوفقنا إلى الصواب

سعيد جاسم الزبيدي

تنسيق وإخراج
صفاء نور البصار
هاتف: 00962 79 6507997
safa_nimer@hotmail.com